



مجلة 28

أدبية ثقافية
العدد السابع عشر

كانون الأول / ديسمبر 2020

كانت وقتنا
عن هذا الكوكب
الشديد

كورونا فون

هذا العدد

Executive Director	المدير التنفيذي	Guest Editor	المحرر الضيف
Mahmoud Alshaer	محمود الشاعر	Dalia Taha	داليا طه
Editorial Manager	مدير التحرير	Proofreader (Arabic)	تدقيق لغوي (عربي)
Majd Abuamer	مجد أبو عامر	Abed Al-Rahman Abu Shammaleh	عبد الرحمن أبو شمّالة
Editorial Secretary	سكرتير التحرير	Proofreader (English)	تدقيق لغوي (إنجليزي)
Yara Nassar	يارا نصّار	Marguerite Debaie	مارغريت دباي
Design and Layout	الإخراج الفني	Coordination	تنسيق
Mahmoud Alshaer	محمود الشاعر	Shadi Baker	شادي بكر
		Cover Painting	لوحة الغلاف
		Haitham Haddad	هيثم حداد



مجلة 28

أدبية ثقافية

تصدر عن شركة وِسْمِ Hashtag للإنتاج الإعلامي والثقافي
غزة - فلسطين

تُرسل المخطوطات باسم مدير التحرير عبر العنوان البريدي:
eboard@28mag.ps

website: www.28mag.ps

E-mail: info@28mag.ps

Facebook: [FB.com/28magazine](https://www.facebook.com/28magazine)

Mobile: 00970595885856



بدعم من: Volkswagen Stiftung





- 6 افتتاحية العدد
داليا طه
- 10 بداية البداية
يزيد عناني
- 13 عزيزي
آلاء قرمان
- 17 أضحك لأنني لأجد شيئاً آخر أفعله
حمزة حسن
- 21 سيناريوهات لنهاية العالم
رائد وحش
- 30 مجرد البقاء في البيت
أحلام بشارات
- 38 زيت وزعتروكينوا
عبد الرحمن شبانة
- 42 اللهواخفي
خالد حوراني
- 48 عوالم على وشك أن تأتي
كارلوس سيراه

- 54 ماذا وجدت وسط الكارثة
رشا حلوة
- 59 ثلاثة قصائد
أسماء عزايزة
- 64 أربع قصائد
طارق العربي
- 67 خطبة
ديان إكزافيير
- 72 الحاكمة
ربيع عيد
- 75 مذكرات يوم واحد
لما رباح
- 77 ربما لم أعد أجد الكتابة
محمود الشاعر
- 81 من الفقد إلى العزل، وليس العكس!
يحيى عاشور
- 85 إطلالة على الحياة
دنيا الطيّب

افتتاحية العدد

داليا طه

مع بداية جائحة الكورونا، ومع إعلان الإغلاقات، فرغت المدينة لأول مرة. أغلقت المحلات والمقاهي، توقفت الأشغال، هجرت المدارس، واختفى الناس والسيارات. وبينما فرغت المدينة منا، نحن البشر، بدأت قوة أخرى تسري في المكان. كنا نشعر بها بالطريقة التي تتمدد فيها النباتات، وبالطريقة التي غمر فيها الضوء درجات الحديقة، بالعشب الذي نما على جانبي الطريق. كنت أخرج يومياً لأمشي، أقطع شارع الطيرة الرئيسي جيئة وذهاباً. أحياناً حين أصل كازية الهدى، حيث تطل من هناك على التلال من بعيد وتبدو السماء واسعة، كنت أقف في الشارع مأخوذة بالريح وهي تعبر الأشجار. كل مرة تحرك أوراق الأشجار، وفي كل مرة تتحرك الأوراق بطريقة مختلفة قليلاً.

في المنزل كنت أتابع برعب أخبار انتشار الفايروس. كنا نشترى الكمادات والمعقمات. نتفحص كل يوم موقع كورونا العالمي، بينما نتابع بجزع أعداد الوفيات وهي تزداد في الولايات المتحدة وفي إيطاليا. نقرأ المقالات التي تتحدث عن فشل الأنظمة التي سمحت لهذا الفايروس بالانتشار، وعن التأخر في الإعلان عن خطره. ثم نشعر بالغضب اتجاه الاحتلال الذي لم يتوقف لثانية عن عنفه في لحظة كهذه. كنا ننتظر الموجز المسائي من قبل لجنة الوباء بشكل يومي. ونستمع لها ونحن نعلم أن الجميع في فلسطين يستمع لها في الوقت نفسه. كانت الفترة بدايات الربيع، وكان العالم يتفجر أمامنا بالخضرة والألوان، وكنا للمرة الأولى نشعر بأننا على باب شيء لا نعرف ما هو. لقد جاءت هذه اللحظة بالأم كثيرة، فهي كشفت بصورة لا يمكن إخفاؤها عن فشل الأنظمة السياسية والصحية التي وضعت الاقتصاد فوق البشر وحيواتهم. أظهرت قسوة هذا العالم وبطش هذا النظام الذي يضحى بالمهمشين والضعفاء والفقراء، ويستمر بحماية الأغنياء والأقوياء. كما فتح الوباء الباب لأسئلة كبيرة وصراعات سياسية ضخمة كانت تختمر على

مدى عقود طويلة. من أين نبدأ؟ لطالما شكل هذا السؤال عقبة أمام الكتابة واعترافاً في الوقت نفسه بتعقيد القضايا، إضافة إلى استحالة الحديث عن قضية دون الحديث عن أخرى. فوق كل ذلك، لم يعد هناك طارئ واحد يلح علينا، كل القضايا طارئة ومستعجلة وتتوقف عليها حيوات الكثيرين. ولهذا، حين وجهت الدعوة لأصدقاء وكتاب للمشاركة في هذا العدد من مجلة 28، لم أكن متأكدة من طبيعة الدعوة. عاد سؤال «من أين نبدأ» مجدداً يشعرنى باستحالة الكتابة عن قضية دون أن تغفل عن أخرى، ولهذا حين أرسلت الدعوة، كانت دعوة مبهمة، كما لو أنني أحاول أن أسألهم لا «من أين نبدأ؟» فحسب، بل «كيف نبدأ؟» أو هل من الضروري أن نبدأ؟ وهل يمكن للكتابة أن تحكي شيئاً؟

حين بدأت النصوص تصلني، شعرت بأنني أجد جواباً عن هذا السؤال. لم يكن جواباً دقيقاً وواضحاً، بل كان فقط تأكيداً على ضرورة الكتابة، وأنها بحد ذاتها، كفعل، هي طريقة لأن ننظر وأن نلح وأن نؤكد على أن الطارئ ليس بالضرورة ما نعتقد أنه هو.

هناك جمال وسحر معين لن ننتبه له في هذا العالم دون أن نقر بأنه مكان غامض وشاسع ومجهول. وأنا في الحقيقة، لا نزال لا نعرف عنه شيئاً. هذه حقيقة نتناساها في غمرة انشغالنا بمتطلبات الحياة البراغماتية: العمل، الأطفال، مسؤولياتنا اتجاه عائلتنا وأصدقائنا، اتجاه مجتمعنا ومدننا. ولكن كما أننا موجودون لنبحث عن الطرق التي نعيش فيها على هذه الأرض، وكما أننا موجودون لنزرع ونخترع ونبني، فنحن، أيضاً، موجودون لنتساءل عن الطريقة التي نعيش بها؛ عن الحياة بمعناها الفلسفي والشعري: لماذا نحب؟ ولماذا نكره؟ لماذا تهزنا التلال؟ ولماذا تمتعنا الصداقات؟ لماذا نحارب؟ ولماذا نخسر؟ ما هو العالم الذي نحلم به؟

النصوص التي كتبت لهذا العدد من مجلة 28، تأتي من هناك. من عالم بدا -للحظات على ما هو عليه-أحجية. وهناك ضرورة شعرية وسياسية للنظر إلى العالم كأحجية. لا نتذكر أننا جزء من هذا الكون، بل لأنه من الصعب أن تشعر بالممكن دون الانتباه للعالم كمكان قادر على أن يظل يفتننا. إن الممكن بمعناه السياسي والثوري، حي في عالم لا يزال قيد التشكل، أي في عالم يطمح لأن يكون صورة أفضل عن نفسه. العالم يحتاج إلى الخيال، ويحتاج إلى الحالمين الذين يؤمنون بأنه من الممكن أن نغير العالم. بدون الإيمان بالممكن، لا يمكن لأي شيء أن يحصل، لا يمكن أن نحب، وأن نضع الفن، وأن نكتب الروايات، وأن نخترع. في النهاية، نحن لا نملك سوى هذا العالم، ولا نعرف شيئاً عن هذا الكون الواسع سوى هذا العالم، وكل ما نراه حولنا هو الشكل الوحيد الذي نعرفه من خلاله.

لا يستطيع أحد منا أن ينكر، أنه للحظات، وبخاصة مع بداية الجائحة، سرى في العالم أمل صغير. أمل بأننا قد نخرج من هذه الأزمة نحو عالم أفضل، يختلف بشكل راديكالي عن العالم الذي كان قبلاً. صحيح أن الأمل يتضاءل الآن، مع تيقننا بأن سطوة النظام الرأسمالي تزداد توحشاً. إلا أنه كان من الممتع أن نعيش تلك الحالة للحظات: لحظات الانتظار والتساؤل عن طبيعة القادم، وفوق ذلك، لحظات من إيمان حقيقي بأن ذلك ممكن. وظهر ذلك الأمل على شكل بعض الحركات الاجتماعية والسياسية في العالم مثل حركة «حياة السود مهمة» في الولايات المتحدة. إذا كان للأمل دائماً مكان في هذا العالم، فإن الكتابة هي فيزياء هذا الأمل، تظهره لنا على أشكال مختلفة، تارة يلمع، وتارة متبخراً، وتارة متمزقاً.

تخبرنا هذه النصوص أنه لا يمكن أن نعيد تصور العالم دون أن نعيد تصور الطريقة التي نتخيل ونعيش ونحب ونصدق. وأنا نملك الخيار لأن نعيش كآلات أو نعيش كبشر، أي كائنات تتنفس وتحب وتصدق وتتألم وتحزن وتحلم بالهرب. إضافة إلى ذلك، تقول تلك النصوص حقيقة مهمة: إنه في هذا العالم الغريب، من أكثر الأشياء راديكالية هي فعلاً أن تحب. ليس بالمعنى العاطفي للكلمة، بس بالمعنى الكلي أو الفلسفي.

جميعنا نشعر بذلك العيب، عيب أن نكتب من أمكنة وعن أمكنة تتعرض للمحو بالمعنى الحرفي للكلمة، كيف نكتب في مواجهة القتل؟ كيف نكتب في مواجهة الإعدام والمحو والتشريد؟ كيف نكتب في مواجهة وباء عالمي؟

إن هذا موقع صعب ومؤلم للكتابة، نحن نعرف هذا ككتاب فلسطينيين، بأننا في مواجهة الطارئ الكبير نخجل من الحديث عن الطوارئ الصغيرة، وفي مواجهة الألم الكبير لا نعرف كيف نشير إلى الجروح الصغيرة، ولكن ربما الأدب هو المكان الذي يذكرنا بأن الحياة تحدث بكل تفاصيلها، من السياسي إلى الهامشي، من النجاة من القتل إلى التملل من غياب مصفّات السيارات، وأن الهدية الحقيقية التي يقدمها لنا الأدب: هو الدخول إلى عالم آخر. وما يجعله دوماً عالماً آخر، ليس أن الأحداث تقع في مدن أخرى مثل القدس أو كنشاسا أو بكين أو بغداد، بل لأن هذا العالم الآخر هو العالم الداخلي للشخصيات، والمنظور الذي ترى منه العالم الخارجي وتصفه.

تثير هذه النصوص فضولنا، وتجعلنا نتساءل عن الحيوانات التي تتناولها النصوص. إن الأدب هو الخريطة التي تمنحنا فكرة عن معنى وطرق العيش في هذا العالم: العالم المليء بالتقييدات والأحكام والهويات المخترعة والقوانين والتشريعات، والعالم نفسه الذي يتدفق ويتحرك ويصر ويحدث غير مبالٍ بكل القوانين من حوله. وأحياناً ما نريد أن نقوله عن العالم يأتي من الذهاب في الطريق الأخرى، بعيداً عنه، نحو عالماً داخلي، ورؤيتنا المنفردة للعالم والأشياء والوصف المادي والميكانيكي للأحداث والأيام. أليس هذا هدية الأدب: التفاصيل.

يمنحنا الأدب الفرصة للدخول إلى عقل شخص آخر. هل هناك هدية أجمل من ذلك؟ وهذه النصوص هي دهاليز العوالم الداخلية وأدمغة أشخاص عايشوا لحظة استثنائية في هذا العالم، وصنعوا داخل العزلة التي فرضت علينا، عزلة أخرى: أكثر رحابة، عزلة تتطلع نحو العالم، عزلة مشرعة أمام الآخرين، تلوح لهم دائماً كأنها تقول: تعال تجول، تعال وجرب أن تكون شخصاً آخر.

بداية البداية

يزيد عناني

لم أكن مولعاً باستخدام شرفة شقتي المطلّة على وادي ترفيديا، أو وادي أرض الإخلاص، مع أن مقومات المشهد منها قد سحرت الكثير من زوار البيت. فهناك عمائر مدينة بيتونيا التي تقبع على هضاب الجبل المقابل. يقولون إنها تشبه علب السردين أو الكبريت. ولكني لا أبه كثيراً بهذه التشابيه، لأنني أعتقد أن شقتي في عمارة شبيهة جداً لعمائر الكبريت، ولكنها في حي الطيرة «الراقي»، فيجمل الكثيرون من الذين يحاولون التشبث في «رقي» الحي من ذم العمائر وأشياء أخرى فيه. سحر المشهد لا يكمن في عمائر بيتونيا إلا في الليل، حيث تختفي خزانات المياه السوداء البلاستيكية من فوق أسطح المباني، وتتحوّل مصفوفات ثقب الشبائيك السوداء واللانهائية إلى طيف من أضواء بيضاء وصفراء وبرتقالية متألّنة مثلها مثل أضواء مدينة تل أبيب على الساحل، التي يمكن، أيضاً، التمتع «بجمالها» من شرفتي. كانت شرفتي الملاذ الوحيد لي مع العالم الخارجي خلال جائحة الكورونا، لذلك، وعلى غير العادة، قمت بفتح أبجورها الكبير بشكل دائم. ورأيت منها فصل الربيع في وادي ترفيديا يمر بخضاره ولونه الأصفر وعبقه بسرعة جداً. ومللت غروب الشمس خلف خط البحر الأبيض المتوسط البرتقالي بغض النظر عن ألوانه وأشكاله.

وفي خضم الحجر، وخلال العمل من المنزل عبر برامج التواصل الرقمي، كان السؤال المؤرق لنا دوماً في المؤسسة، ماذا علينا أن نفعّل لو استمر انتشار المرض والحجر الجمعي للسنة القادمة؟ كيف سنتناول السياق الحالي لجائحة الكورونا وندمجها في برامجنا وفي عمل المؤسسة في السنين القادمة؟ كانت هذه الأسئلة نابعة من إدراكنا جميعاً أن الجائحة ستترك ندوباً اجتماعية عميقة واغتراباً عما كان حميمياً ومألوفاً لدينا، وأيقنا تأثيرها الحتمي على مستقبلنا، إلا أنها، وبالعكس تاريخ الأوبئة في فلسطين، فقد تزامنت مع خطة إسرائيل بضم الضفة الغربية، وتسارع خطوات التطبيع بين إسرائيل

والدول العربية، وتفاقم الأزمة الاقتصادية، وبخاصة تقلص المساعدات والمنح الدولية لفلسطين، وأخيراً إخفاق المشروع السياسي الفلسطيني. كباقي المحجورين في العام، كان لدي الفضول كيف يتعامل أصدقائي حول العالم مع منظومة تفشي المرض الجديدة، وكيف تتأقلم الدول المختلفة بتطويع أجهزتها من مراقبة وعسكرة ونظام الصحة والرفاه الاجتماعي... إلخ تحت هذه الحالة الصحية الطارئة. من خلال العديد من جلسات الـ (Zoom)، والسماع إلى الكثير من الحوارات والنقاشات، تبين لي استمرار التناقض الأزلي بين منظور دول الجنوب والمنظور الأوروبي في تعريف مفهوم «الأزمة»، وربطها بجائحة الكورونا، وكيفية التعامل معها من خلال الحقل الثقافي. كلما أصغيت أكثر لعاملين ثقافيين من أوروبا والولايات المتحدة، أيقنت الانحسار المعرفي في الثقافة الغربية حول الأزمة التي تكمن خارجها، حيث أضافت جائحة الكورونا طبقة أخرى إلى الأزمات السياسية والاقتصادية المتفاقمة والمزمنة في التاريخ المعاصر لشعوب الجنوب بشكل عام. فعلاقة «الأزمة» بشعوب الجنوب ليست جديدة. فمثلاً، أضاف الانفجار العارم لشحنة نترات الأمونيا في مرفأ بيروت في 4 آب المنصرم إلى الجائحة المستمرة للوباء، وإلى أزمة الفساد السياسي والطائفي والنظم الأبوية الهرمة الحاكمة في لبنان، كما أدى إلى تعميق الأزمة الاقتصادية المستمرة.

أما بالنسبة لنا هنا في فلسطين، فإن خطة الضم الإسرائيلية الحالية هي حلقة أخرى من سلسلة طويلة من طغيان استعماري مستمر على الفلسطينيين، مرتبط باقتصاد متهلهل يعتمد على الهبات وأموال الدول المانحة، ومجتمع فلسطيني منقسم بين بانتوستانات جغرافية وبدون رؤى وآفاق سياسية، إضافة إلى تجذر للفصائل السياسية الأبوية الهرمة، وتزايد الأصولية والقبلية كطريقة للحياة، وأخيراً تفشي الثقافة الاستهلاكية والفردية النيوليبرالية.

ومن مطالعة أدبيات الكورونا منذ بداية الوباء، تبين لي أن العديد من المفكرين والفنانين والأكاديميين قاموا بوضع تصورات وتكهّنات لدور قطاع الثقافة والفن ومؤسساته في ظل الأزمة العالمية الراهنة.

فهناك من تناول أزمة الوباء؛ سواء تم تصنيفها على أنها «طبيعية» أو «مفتعلة»، من زاوية تسليط الضوء على التوزيع غير المتكافئ للسلطة وتفرد الدولة بالقرار السياسي بمعزل عن الشعب، وإبراز هيمنة واستبداد الدولة والشركات الاستثمارية من جهة، وبين الحراك المجتمعي المضاض والمطالب بالعدالة الاجتماعية والديمقراطية من جهة أخرى. لقد توقع عدد كبير من أتباع الـ ما بعد-بنيوية سيناريوهات لمجتمعات أكثر انقساماً، حيث تسعى الدول بموجها إلى تحصين حدودها على أمل حماية نفسها من الخارج. ويتم التنبؤ بزيادة عنف الدولة الداخلي الممنهج، حيث تظهر طرائق ذكية جديدة في توجيهه ضد الحراك المجتمعي المضاض، وُثم تقويضه وإخفائه.

ونظر آخرون إلى سيناريوهات أقرب للخيال العلمي قريبة من كتابات جورج أورويل، حيث تنبأوا بمستقبل خلف الشاشات وفي مجتمعات مسورة، حيث تُحرر جائحة الكورونا البشرية من قشرتها البيولوجية، وتُحول الكينونة البشرية إلى معيشة رقمية بامتياز. مجموعة أخرى تتناول أزمة الوباء من منظور «الأنثروبوسين» والتأثير البشري الكبير على جيولوجيا الأرض والنظم الأيكولوجية، ويرون الرأسمالية كمشروع يعتدي على بيولوجيا الإنسان وجسده، والهواء الذي نتنفسه في رئتينا، والتغذية التي تدخل أجسادنا.

في أثناء ذلك كله، دعا آخرون إلى الهروب والخروج من الدائرة المفرغة للاقتصاد الثقافي التي تم تسكينها بعلاقة تمويلية تبعية ما بين الجهات المانحة؛ سواء أكانت الدولة أم جهات أخرى، وبين المؤسسات الثقافية، والفنانين أو الفاعلين الثقافيين عبر البرامج المؤسساتية، ما يفرض أجدات توطر العمل الثقافي، وترسخ التبعيات وتعود الفنانين على عدم القدرة على العمل خارج منظومة هذه العلاقة.

ومن هذا كله جاءت فكرة استكتاب مجموعة من الكتاب الشباب من مختلف الجغرافيات الفلسطينية لسرد تأثير الجائحة على حياتهم اليومية، واستقراء مستقبلهم ومستقبل البشرية المجهول، كلٌّ من منظوره الخاص.

عزيري

آلاء قرمان

عزيري،

أستطيع أن أسمع صوت العصافير لا النوارس، العصافير الصغيرة التي تغيبها صيحات النوارس والباعة وأقدام المتجولين الكثيرة، حتى إنني أراها. مر وقت طويل جداً منذ أن رأيت عصافير كعصافيرنا، ومنذ أن سمعت زقزقة ليست للنوارس. أقف قليلاً، يمكنني أن أحس بالهواء الخفيف وأنا أعدل قناعي وأفرك يدي بالمطهرات، ولي أن أراقب البوسفور يجري إلى الأبد. أجلس أمام صفته وأنسى الوقت، أراقب أسراب السمك، والقناديل، والعلب الفارغة، والصيادين. وإن مللت أمشي حرة، هكذا دونما غاية، أو أركب العبارة وأقطع المسافة بين قارتين، منتصرة في كل مرة على كل الحدود والمعابر. لم أخبرك حتى اللحظة أنني هناك لم أفعل شيئاً دون أن أسرف في منحه صبغة فلسطينية، في فلسطين لا مكان للمشي العادي مثلاً في الغيتو الذي نقيم فيه، فكل مشي هو هوياتي النزعة، إن كان مشياً في جبل، أو قطعاً لزيتون، أو حتى ذهاباً وإياباً بين مدينتين. هناك لم أعرف عني سوى أنني فلسطينية وأنا فلسطينيون. يمنحنا الاحتلال إطاراً واحداً لنتحرك به، إطار الضحية، يشرذمها، ويفرض آلافاً من الإجراءات المتعلقة بها، ويمعن في طمسنا، ومنح أنفسنا سرديتنا الشخصية مغرقة الفلسطينية، وبدونها نشعر بالضياح والاضمحلال.

حينما تركت فلسطين لم تكن أنت جزءاً من الحكاية بعد، أليس غريباً جداً أنني اخترلت ثلاثين عاماً من فلسطين في حقيبتين فقط. بكت أمي وأبي وأختي، ولم تبال القطعة بي. وحينما انحدرت السيارة بنا من نابلس إلى أريحا، شعرت بوخز خفيف، كما لو أنني أركب أرجوحة مرتفعة تهبط نحو الأسفل. وقفت صباحاً أمام المعابر، دفعت الضرائب الكثيرة، ختمت جواز سفري، تصریح خروجي، جلست في باص، انتظرت، نزلت، أتجنب دوماً أن أكون أول من يغادر الباص في المناطق الإسرائيلية، أحس أنني لو أخطأت، لو توقفت، لو مشيت أبطأ من اللازم، أسرع من اللازم، لربما انتهى بي الأمر ميتة، أترك

الأخرين ليقودوا خطواتي. أتجنب لمس الشرائط البلاستيكية، لم يكن هذا زمن الكورونا بعد، لكنني أشعر بالقرف. أنسل بخفة بينها. يشير الجندي إليّ بسلاحه، أنظر إلى السلاح، إلى فوهته سوداء وباردة، أتبع التعليمات، أعد، هذه حيلتي السرية دوماً، العد. أعد أنفاسي لأن الشهقات الكثيرة تعني أنني أعتدي على الأكسجين هنا، وهذا الأكسجين ليس لي، أتبع الناس، أف في وسط المكان حائرة، ثم أحسم ترددي لأن جندياً ينظر إليّ، أقدم أوراقتي، جواز سفري المؤقت، وتصريحي، أفكر: هل عليّ أن أقول صباح الخير؟ يعطيك العافية؟ صباح الخير دون تمنى العافية؟ هل أبتسم؟ أقدم أوراقتي، هذه أوراقتي أقول، أف، لا أستطيع أن أرى كثيراً ما يحصل خلف الزجاج، تسلمني المجددة الجالسة هناك أوراقتي، أتبع الخيط، أختمها مجدداً، أسمع صوت طقات الحديد، ثلاث طقات، وأنجو من الموت. أنا حرة تقريباً، في الطائرة أغمض عيني ولا أنظر ورائي.

لا أحد يعرفني في إسطنبول، لا وجوه مألوفة تنظر إليّ وأنظر إليها، ولا حتى لغة، يتسرب إلى قلبي شيئاً فشيئاً فقدان من نوع ما. يسألني الأغراب عن هويتي، فتسبني، أنا لست سوى ابنة لبلد المسروق إذن، تظلمني إسرائيل وأظلمها، وتبادل الأمكنة، أي منا هو الضحية؟ من سرق من؟ هل هم سرقوا مكاني أم أنني سرقت مكانهم؟ وإلى أي البلدان أنتمي؟ تلك التي أحمل شهادة ميلادها؟ أو التي أحمل جواز سفرها أو الثالثة التي أحمل هويتها؟ كل العيون تراني، ولكنها لا تدرك مني سوى الحكاية؛ الحكاية التي تتعدد وتختلف وتتشعب ولا أملك منها أنا شيئاً.

ليس لي حكاية بطولية، تحميني من الهزيمة، أو تبعديني عن الواقع المهتز، ولا يمكنني الإفلات من فلسطينيتي، وددت حين جئت إلى المدينة التي لا تنتهي، أن أستيقظ، أن أغسل وجهي، أشرب القهوة، أستمع إلى الموسيقى، وأن أقرر أنني لم أعد أريد أن أكون هنا، أن أحزم حقائب وأغادر إلى أي مكان آخر. لا تحيل فيه فلسطينيتي عليّ، لكنني العالقة في إسطنبول منذ نصف عام الآن، العاجزة عن الحركة، لا أمام، ولا إلى الوراء، الفلسطينية، حاملة الجواز الأردني المؤقت، إقامتي منتهية، وطلبي لتجديدها مرفوض، أنتظر، مقيمة غير قانونية في إسطنبول، أنتظر فيزا عبوري إلى أوروبا، وأمتلك حلماً واحداً: هو العبور إليك.

وأنا المصابة بالخوف، أستبدله كما أستبدل قمصاني القليلة، نصفه تركته في البيت هناك، وحملت نصفه إلى هنا، وجهي لم يعد لي، أستيقظ في الثالثة صباحاً، أفتح عينا، أجزع، أغلق الأبواب مرة أخرى، والنوافذ،

أراقب أنفاس القطعة الخفيفة، وأهدد نفسي بالحقيقة: هنا، خارج المكان. في التاسعة صباحاً، أحمل حقائبي ودفاتري وألبس وجهاً آخر، أخاف فيه من الوحدة، من الحافلات التي تمتلئ بالماء، من قلبي، من الآخرين حولي، ومن كوني الآخر- وإن كنت أتقنت هذا جيداً جداً- من القطارات تحت الماء، ومن الماء، ومن أن لا أتقن قراءة الخريطة. في الصيف، أستأجر سيارة، أحمل ما تبقى مني، وأجوب الشوارع، لساعات، خارج المدينة، لا يوقفني أحد، حينما تنعطف السيارة، حينما أنتهي في الشارع الخاطئ، حينما أصعد الجبل وألتف وراءه لأعرف شكل الجبل، حينما لا أريد أن أعبر هذا الطريق، حينما أرسم خريطة شخصية لي، لا تمتلئ في السواد، لكنني أفزع من صوت الطائرة العامودية، من سلاح عابر، من سيارة شرطة، من الانعطاف الخاطئ، فكيف أشفى من خوفي لأعبر إليك؟

وأدرك أن ليس ثمة طريق، تعبر مني إليك، أحلم أن أمسك يديك، طول المسافة التي تفصل بين القارتين هنا، وأن نضحك سوية، وأود أن آخذك معي إلى البيت، أتخيل سيناريو ما لحبك، كأن نلتقي قبل خمس سنوات مثلاً، ونقع في الحب، وننتهي إلى الارتباط، ستقول جدتي وجدتك أن «المتعوس التم على خايب الرجا»، فلا أنت بإمكانك أن تزور بيتي، ولا أنا يمكنني ذلك على الأغلب، وحين أخيراً نحضر أطفالاً إلى هذا العالم، سيرثون من أهم جنسيتها الغريبة، وربما حتى جواز سفرها، ومنك ذاكرتك المثقلة وضحكتك الساخرة وطولك! ولن يعرفوا أبداً ما هو البيت، لا بيتي ولا بيتك. ويكبر السؤال في قلبي: أين هو البيت؟ وكيف آخذك إليه؟

أفرد أمامك كل الهويات التي سمحت لي بالحرية، تلك التي لا تمتلكها، ورسائلي الطويلة التي أشرح فيها إلى الأوروبيين فلسطينيتي المدعاة. لكن الاحتلال لم يفعل ما فعله ملعون الروح تقول لي، وهي المفارقة الوحيدة التي تثير غضبي، هذا ليس اعتذاراً أو تبريراً أو إلغاءً أو حتى مزادة تاريخية الطابع حول الرصيد الأعلى من المعاناة، كل ما في الأمر أنني نجوت من الموت هناك، لكن الاحتلال لا يريد موتي، بل يبحث عن طريقة لطمسي، لإلغائي، ومسح إمكانياتي الإنسانية البسيطة: كأن آخذك معي إلى البيت.

عزيزي، أعلم أنك ستضحك الآن على شكواي الطفولية من العالم، وتفرد أمامي كل الهويات التي تمتلكها، جواز سفر منتهي الصلاحية، هوية ممزقة، إقامة سارية المفعول، وطلبك للجنسية التركية، وخريطة للهجرة، خريطة مفصلة جداً، ولا شرعية. تبدو فلسطينيتي الثقيلة، حمامة أخرجها الساحر من كفه، وتركها لتتفرغ في مسرح هذا العالم الكبير. فأخجل. أخجل من أن أدعوك إلى البيت. أستكين إلى ذاكرتي الآن، لأنها هويتي

الوحيدة، كما تستكين إلى ذاكرتك، أتمرد على كل ما كتبتَه أعلاه، وأمارس تمرکز الفلسطينيين حول ذاته، التمرکز الذي يسمح لي أن أخبرك بأن ما تقوله هو امتداد طويل لي، وأن كل اللحظات ليست سوى تكرارات زمنية بالغة الوحشية لمأساتي الشخصية، وأني لا أهرب، فهذه الفلسطينية تلتصق بي، مهما نفتها كل الأوراق التي أملك، ووجودي المؤقت الحالي في هذا العالم، إنها وجهي الذي أرى فيه العالم.

أقف في حلمي /ك، في وسط الشارع، يبدو أحياناً مألوفاً، وأحياناً أخرى لا أعرفه، فوهة البندقية الباردة ناعمة جداً، عاجزة عن التنفس كأني أغرق، في الشارع، نقف متقابلين، أنا وأنت، نعبر هذا العالم. أمد يدي إليك. لكننا لسنا سوى عابرين إلى غرف بعيدة مستحيلة.

أضحك لأنني لا أجد شيئاً

آخر أفعله

حمزة حسن

كان يجلس بجانبى صديق فلسطيني، قال لي: «هل سمعت بخبر انفجار المرفأ في بيروت؟ إنه عملاق». لم أهتم بمفردة الانفجار وصفتها، كانت مفردة بيروت أكثر قرباً لي، دخلت إلى الإنترنت أبحث عن بيروت ولبنان في محرك البحث «جوجل»، العديد من الصفحات الإخبارية تحمل اسم بيروت ويجانبها انفجار ضخم، شيء ما اهتزّ داخلي، ربما انفجار قديم من انفجارات قطاع غزة أصدر صوتاً متعاطفاً مع بيروت. هذا أمر مريب، بالنسبة لي على الأقل، الوقت ليس مناسباً لأي أحداث مأساوية أخرى؛ نواجه فيروساً مأكراً، لا لون له، أو وجه، جعل كل حياتنا وأوقاتنا محل شك؛ «هل سنكون هنا في الغد؟ هل أنا على ما يرام؟». أسئلة تزداد يوماً بعد يوم، وقلق يكبر مثل جرثومة داخل جسديك. الخارج ليس آمناً، والداخل مثل قبيلة موقوتة؛ العالم بأكمله يتربص سقوط اللحظات من فوق رأسه، ونحن على دراية أن القادم أسوأ، لكن «الأسوأ» لا يريد أن يحدث هذا كله.

خرجت من غزة -أو ربما الفعل «نجوت» أكثر ملاءمة هنا- لأن المسألة لم تكن سهلة على الإطلاق، كان لزاماً علينا أن ندفع مبلغاً مالياً يتجاوز الألف دولار كي نقفز من معبر رفح إلى مصر، ثم نفكر بماذا سنفعل بعد ذلك. لا أعرف لمن تذهب هذه المبالغ، قمت بتسليم الدفعة إلى صاحب مكتب سياحة وسفريات؛ كي يضع اسمي على قائمة السفر دون معاناة، ومع ذلك مكثت لأكثر من ثلاثين ساعة في الصالة المصرية أنتظر ختماً على جوازي يعطيني الحق في الدخول إلى مصر. هذه هي كوميديا الحياة! هربت من حروب تعيد تكرار نفسها كل سنة؛ لأنني لست جاهزاً للعراك مع طائرات ودبابات وأصوات مرتفعة، جسدي لا يقوى على ذلك، هذا الجسد الذي ينام متعرقاً لأن الكهرباء لا تحب المدينة، ويستيقظ عطشاً، لا عمل لديه، لا

رغبة في الاستمرار، لا حياة، ينام ويستيقظ، هذه هي مهمته فقط. ثم جاءت فكرة النجاة والهرب إلى مكان أفضل، مكان يحترم جسد الإنسان ورغباته من كهرباء وماء وعمل وكرامة.

ليس من السهل على إنسان خرج من قطاع غزة على بعد معارك طويلة ومملة؛ كي يجد جسده الراحة، أن تمر عليه مفردات مثل «انفجار، ضحايا، جرحى، إصابات، قتلى، شهداء، مجزرة، عدوان، نيران، رعب، صاروخ، مرض، حرب، عتم، تشرد، جثث، جوع، فقر، ركام، وموتى»، ولا يحرك ساكناً! هو لم يعتد بعد على نسيان تلك المفردات، ما زال منغمساً بها في أيام حياته، الحركة بالنسبة له مرعبة، الصوت مرعب، الأماكن المغلقة مرعبة، كل شيء يذكّره بما مر به سابقاً، العالم بحد ذاته فكرة مرعبة، ونحن كل ما نفعله هو أن نعتاد الخوف.

الخوف من ماذا؟ الخوف من التكرار، الخوف من إعادة التجربة وأنت لست جزءاً منها، مثلاً: المشاهد المفضجة التي كانت تأتي من بيروت، أعادت داخلي كل مشاهد الحرب والأصوات والحركة السريعة التي عشتها في حياتي خلال فترات العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة التي ما زلت أعاني منها حتى هذه اللحظة. هذا ما أسمّيه بـ«تكرار اللحظة العفنة»! الحزن والخوف لم يكن على لبنان، الخوف كان من الأشياء التي تستيقظ داخلنا. الخوف هو سيد هذا العالم، هو الحل والعقدة، مثل الخشب والنار.

اليوم وبعد سنتين ونصف تقريباً من محاولة النجاة خارج غزة، إلا أنني -مصادفةً أو ضرورة- عقلت في القاهرة، صرت غريباً زائداً في مدينة فيها كل الأغراب، أبحث فيها عن جدوى حياتي مثل أرنب كسول، قدمت أوراقى أكثر من مرة للسفر خارجها، لكن عقلية الورق غير مفهومة، أي خطأ بسيط فيها يجعلك متسماً مكانك، وبعد المحاولة الثالثة ونجاحي في الحصول على فيزا سياحية إلى بلد آخر، وقبل أن أصل إلى بوابة الخلاص، جاء فيروس كورونا وحوّل تذكرة الطيران إلى شيء بلا قيمة. في الحقيقة، كلنا أصبحنا بلا قيمة، عجالات صدئة عاطلة عن العمل، لا شيء نقدمه، لا شيء نحصل عليه، الحشرات الضارة تعربد في المكان، والكلمة الأخيرة بعد أن كانت للزجاج، صارت للغبار. وصارت للمسمة الواحدة تقتل. النفس الخاطى، يقتل. القبلة، الشهوة، السيجارة، أعواد الكبريت، ذرات الهواء، الغرباء، أسطح البيانات، أسطح المكاتب، كل شيء من حولك تحول؛ الجمادات صارت جاهزة لسرقة دقائق حياتك.

وبعد أن قررت المكوث في القاهرة إلى أن يدق الحظ بابي المؤقت، صرت أخرج من المنزل مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع، واضعاً قناعاً طبياً على

وجهي، أريد أن أشتري الخبز والماء وبعض المأكولات الأخرى كي أكمل حياتي داخل الحجر الصحي بعيداً عن ضوضاء الفيروسات والأمراض المترتبة لي فوق حجارة الطريق، وما أن أنتهي من شراء كل الأشياء التي خرجت من أجلها، أعود مسرعاً إلى المنزل، أغسل الأيدي كما أمرت وزارة الصحة العالمية، لأنني لم أعتد ذلك قبل جائحة كورونا، ثم أعود إلى حالة الملل مرة أخرى. في الحقيقة أنا من الأشخاص الذين يفضلون البقاء في الغرفة أطول وقت ممكن، لا أحب الخروج إلا لو كنت مجبراً ومحتاجاً لأن أفعل، ومسألة الحجر الصحي التي جاء لنا بها الفيروس؛ كنت معتاداً عليها سابقاً، وأسميها: الهرب من الأوجه التعيسة. أي بمعنى؛ أنه لا شيء جديد عليّ، إلا أنك لا تحب أن تطبق أوامر رغم عنك، فصرت أبحث عن أي سبب للخروج. هذه طبيعة النفس البشرية؛ تحب أن تفعل الأشياء من تلقاء نفسها، وإلا أنه لا جدوى لذاتك. تريد أن تنافس هذا الفيروس الذي يفرض عليك مللاً أن لا تحتاجه، يفرض عليك واجبات أنت لا تريد أن تقوم بها، يفرض عليك أموراً كثيرة أنت في مزاج لا يسمح بذلك.

ماذا باستطاعتنا أن نفعل؟ التأقلم هنا ربما يكون فكرة مرغوبة، لكن التأقلم على ماذا؟ على لبس القناع الطبي ورشّ الكحول كل بضع ثوانٍ، والصلاة ألا تكون هذه السُّعلة -التي خرجت للتو- بفعل أولاد الفيروس وهم يلعبون الورق داخل رثيتك! صارت الفكرة غير جيدة بعد أن كانت مرغوبة، كل الأفكار والرغبات تتغير في لحظة واحدة، أو تختفي.

الكل لديه الآن شيء ما يحسد عليه، مثل أن تمتلك حساً يتسع لكل ما يحدث من حولك، الجميع لا يحتمل كمية الأحداث والأخبار السيئة التي تصلنا عبر شاشة التلفاز أو الإنترنت، نادراً ما تجد من يصمد رغم كل هذا. أن تمتلك قطعة خبز، وكوباً من الماء، وفوق رأسك ضوء المصباح، غيرك لا يمتلك هذه الأشياء في ظل الجائحة؛ أمر عظيم. انظر إلى اليمن، العراق، سوريا، لبنان، غزة، وغيرها، كلها مناطق تصنّف تحت خط الفقر، ما الذي نتوقعه منهم في مواجهة فيروس يأكل الأخضر واليابس. لا شيء! أفكر في غزة التي دخل إليها الفيروس قبل أيام قليلة، غزة التي تسعل أمراضاً وحروباً وفقراً وجوعاً وقلة كهرباء وماء وبطالة، وظلم عربي ودولي، سعلة الفيروس ستقضي عليها بلا أدنى شك.

ما أود قوله هو أنني اعتدت المعاناة، وصارت التعقيدات بالنسبة لي أمراً مضحكاً، أضحك لأنني لا أجد شيئاً آخر أفعله، كل شيء يحدث عبارة عن كوميديا. أن تنجو من سجن، وتدخل سجناً أوسع منه - هذا لا يعني أن القاهرة سجن - لا، لكن أي مكان تدخله وتريد الخروج منه ولا تستطيع، هو سجن بالمسمّى الفلسفي والعلمي.

إذن، ما هي بيوتنا الآن؟ أظن أن بيوتنا هو أن تكون صافي الذهن وأنت تعيش لحظّاتك الأخيرة داخل العالم الذي يبدو أنه قد ملّ من مهمته في فكرة الكون، وأن تجد عنواناً واحداً تسجل فيه مكوثك الملائم، نحن الذين لا عناوين حقيقية أو واضحة لنا، نحن أولاد الأمكنة والأزمنة الخاطئة.

سيناريوهات لنهاية العالم

رائد وحش

في اللحظة التي تلت اندلاع انفجار مرفأ بيروت، رحنا نشاهد في الصُور أناساً يركضون مذعورين كمن في يوم الحشر، وعلى وجوههم المذعورة كمّامات.

ربّما أدرك الراكضون في الصور بعد لحظاتي، مثلنا نحن الذين نشاهد الأشياء من خارج المشهد، أن ارتداء الكمّامات في مدينة تحتضر أمر عبثي. ربّما ليس الأمر كذلك، فمن نجا من انفجار لم تمض عليه غير دقائق يحتاج، لأجل النجاة أيضاً، إلى قناعه الطبيّ المليء بالغبار، كما البشر والأشياء والمدينة، من أجل الصمود في وجه موتٍ آخر، يعرفه أكثر من هذا الذي هبّ من المجهول في فجأةٍ.

وربّما لا هذا ولا ذلك، فالراكضون في طرقات بيروت الجريحة لم يحسّوا بأنّ على وجوههم أقنعة أصلاً. شيء ما لا يزال بلا تعريف لكننا نسمّيه الاعتياد هو من جعلهم يرتدونها ويركضون مثلما ينتعلون أحذيتهم دون تفكير عادةً. أمّا مشهد بيروت مبعثرة الأشلاء فخلاصةً لكلّ ما تصوّره عن الرعب. صحيح أنّها المدينة العربية الوحيدة التي لطالما أشعرتنا أنّها مدينة أيّ أحد وعاصمة كلّ أحد، لأنّ ما تصوّرناه دوماً عن الحرّية وجد فيها وجوداً طبيعياً، ربما لأنّها هي نفسها دعتّه إليها معطية إياه الفرصة التي لم يحصل عليها في مكانٍ آخر، ولهذا فالجميع في هذا الشرق يشعرون أنّ لهم حصّةً فيها، أو أنّ لديهم موعداً معها، فهي تقترّب في المخيلة الجماعية ممّا تعنيه المدينة والمدنيّة. هذه الأشياء كلّها، معاً وسويّاً، هي ما يدفعنا إلى القول يائسين مُستسلمين: انتهى كلّ شيء.

يجسّد مشهد بيروت ما بعد الانفجار صورة النهاية. ليس نهاية أحلامنا عن الحرّية والمدن والحياة، ولا نهاية المنطقة العربية التي لم تعدّ تعدّ أهلها بغير الكوارث والنكبات، بل نهاية العالم نفسه.

نعم، صورة بيروت في ذروة الجائحة والثورات المقموعة في سوريا والعراق، ولبنان أيضاً، وفي ذروة الانهيار الاقتصادي والمعيشي ... هي صورة

نهاية العالم. ولا أعتقد أن هناك بلاغةً تنافس تلك السحابة القيامية التي تُكثّف الأوهال التي عرفناها في ثانية واحدة، لتصنع منها أفضع أشكال النهايات التي يمكن للعقل تخيلها، ليس من حيث الدمار والقبح والقسوة وحسب، إنّما من فظاعة شعور الإنسان أنه مساهمٌ فيها، ذلك أن شعوره بالعجز والضعف والتهميش الذي حكم مسيرة حياته سيُحمّله حصّة كبيرة من الذنب، لأنّه صمت ونأى وانتظر، أو لأنّه حاول ألا يصمت وألا ينتظر وفشل على مرأى من نفسه والآخرين.

هي نهاية فظيعة، وما من أحدٍ يراها إلا وسيعتبرها جريمته الشخصية. على الرغم من أن جائحة فيروس كورونا انطلقت من الصين، وكانت لها صولات كبرى في إيطاليا والبرازيل وغيرهما، لكنّها في كلّ مراحلها لم تفرغ ناقوس النهاية بهذه القسوة إلا في بيروت.

منذ ظهور كوفيد 19 - والحديث جارٍ ومنطلق عن بدء عصر الجوائح، وعن مجيء فيروسات أخرى سوف تختار مواعيدها وأماكن ظهورها، وهذا يعني أن الحديث بالمجمل حديث عن بداية النهاية، لا عن النهاية نفسها، لكن بيروت قالت كلاماً آخر، وفي الحقيقة يبدو كلاماً أخيراً، نستطيع نحن أبناء هذا الشرق الذي احترف التعامل مع المصائب أن نقرأه في السحابة القيامية، وفي شظايا المنازل وقطع الزجاج المتناثرة، وفي الدخان والغبار، وفي الدماء والصراخ والعيون المذهولة ذهول من وجد نفسه في الحميم فجأة. نستطيع أن نقرأ ونستوعب كلّ الدلالات في ذلك، فالخراب لا يقود إلى غير الخراب، والآلام لا تتراكم سوى لتنفجر انفجاراً عظيماً.

ما قالته بيروت: الاستبداد لعنة، الطائفية لعنة، الفساد لعنة.

ما قالته أيضاً: إما طرد من يقومون بكلّ ذلك وإما الحريق.

لكنّها تعرف مثلنا أن ذلك ليس سهلاً على الإطلاق، فحين يستشعرون نية الطرد، أو يلمسون أولى بشائرها، سوف يُشعلون الحريق. الحريق في النهاية. والحريق هو النهاية.

بقاؤهم حريق ورحيلهم حريق. هذا تماماً ما هو معلن في سوريا منذ 2011: «الأسد أو نحرق البلد»، وهو كذلك ما يحدث في العراق، وما يحدث للعراق، منذ موجات الاحتجاج العام 2015، التي وصلت إلى مستوى الثورة في أواخر 2019 قبل الإجهاز عليها.

إذاً هو الحريق، الحريق والنهاية ولا شيء آخر. هذا ما يقولونه على طول أرض هذا الشرق وعرضها، وهذا ما نسمعه ليل نهار ممّن يدعون أنّهم مطفئو

حرائق، مع أنه ما من أحد لا يعرف أن شعلات نارِ جَاهِزَة في جوارهم لإعلان ساعة الصفر.

هذا ما يجعلنا نوقن أننا إزاء سيناريو نهاية، إذ ما من حلّ إلا بالخراب، وما من تطهيرٍ إلا بالموت، كي نُفسح المجال لبداية ما، لأي نوع من البدايات، كي تأتي وتقترح علينا مساراً آخر.

إنها نهاية لا تشبه النهايات الدينية المفتوحة على بدايات جديدة، أو على خلاص أخير، لكنها نهاية تنطوي على خراب ودمار حاسمين.

على أية حال، هي نهاية تشبه مخاوفنا كلنا. تشبه مرويات المتدينين وهواجس العلمانيين. تتطابق مع نبوءات العلماء لما هو آتٍ، وتخرج من أعماق قلقهم مما لا يفهمونه. إنها النهاية التي توحد كل هؤلاء الفرقاء الذين ظنّ كلُّ منهم أن في حوزته سيناريو الحقيقة الكاملة.

مهما بدا سيناريو القيامة واضحاً بشدّة في الجزء الذي نعيش فيه من العالم، فذلك لأنّ الاستبداد وقح وقاحة السكاري، ولا يبالي في قول ما في باطن قلبه دون وجل، في حين أنّ الأمر ذاته موجود في الأجزاء التي يقال إنّها ديمقراطية من عالمنا التعيس، لكنهم هناك يفعلون ما يفعله مستبدونا ولصوصهم وتجارهم وشيوخهم وأبواقهم من دون أن يقدّموا الخطاب الأحمق الخاصّ بنا، ولعلّ المثال الأسطع على استبداد هؤلاء هو تلك الصور النظيفة للكوكب التي راحت تنتشر خلال فترة الحجر، حيث ظهر أماننا نقياً وصافياً مثل رئة شخص أقلع عن التدخين من سنوات، وظهر جميلاً بما يرغم كلّ واحد منّا على التنطع للدفاع عنه. ذلك الصفاء والجمال بسبب توقف المعامل، أي توقّف عمل مشعلي حرائق النهاية. لكنّ الأمر لم يطل، وسرعان ما انتصر هؤلاء مرّة أخرى، حيث وضعوا الدول الكبرى أمام خيارين: الحياة أو الاقتصاد. الحياة أو الاقتصاد؟ لعلّها أسوأ مفاضلة عرفها تاريخ الحضارات. ولعلّ الأسوأ من طرّحها هو الأخذ بالخيار الذي ينتصر لمصلحة فئة على حساب حقّ كوكب كامل بالحياة، وعلى حساب أناس يحقّ لهم وقاية أنفسهم من المرض حتّى تلاشيه.

هكذا انتهى الحجر، وعادت المعامل تبث سمومها، وعادت سياسات النيوليبرالية تواصل التهام خير العالم، وإفقار سكّانه، دون أن تنسى طبعاً أنّ هؤلاء ذاتهم تذرّعوا ببلوغ الخسائر حدوداً قصوى، فطالبوا الدول بالتعويض لهم، ثمّ ألحوا على العودة إلى صناعاتهم وسياساتهم التي قادت العالم ليكون مكاناً مثالياً لولادة الأوبئة، إلى جانب جعله مسرحاً للقهر واللاعذالة.

ندرك جيداً أن العالم يسير بثقة نحو النهاية. ربّما كان العالم منذ اليوم الأوّل للوعي البشريّ عالماً على حافة النهاية، فالإنسان وجد نفسه في مواجهة فكرة النهاية التي رآها على شكل ليل حيناً، وعلى شكل شتاء حيناً آخر، وموت الخضرة والدّفء. وكما أنّ هناك نهراً وراء كلّ ليل، وربيعاً وراء كلّ شتاء، فإنّ هناك حياة خلف كلّ موت.

هذا هو السياق الذي وُلدت فيه أساطير البشر الأولى حول الحياة والموت، ومن ثمّ تطوّرت في أشواط كبيرة مع قصّة مقتل الإله وانبعائه، التي تختصر في ثقافة الشرق تاريخ محاولات الإنسان حلّ أو فهم معضلة الفناء. لكن مع استمرار إلحاح سؤال المصير البشريّ العام توجّب على الأديان أن تأتي وتقدّم أوراق اعتمادها من خلال فكرة القيامة الخلاصية التي تعبر بنا إلى مكان آخر، منهيّة بذلك الخوف من الموت بوصفه نهاية محتمّة وجعله مجرد رحلة.

العلم مشغول بالحديث عن النهاية أيضاً، وفي جعبته سيناريوهات مخيفة ترفض دول كبرى مواجهتها، أو أخذ المسؤولية الأخلاقية تجاهها. وبدخول العلم على الخطّ فهذا يعني أنّ الخيال الدينيّ عن نهاية العالم التي لم تتحقق يستطيع أن يعاود النشاط مع نهاية لها ملامح واضحة، قابلة للتحديد والتعيين، ويمكن فهمها بدقّة من خلال البيانات والأرقام.

يقول العلم إنّ الوقت المتبقي أمامنا لإنقاذ عالمنا هو 15 سنة فقط، إذا غيرنا فيه أنماط سلوكنا وعيشتنا يمكننا الاستدراك، وإلا فإنّها الفرصة الأخيرة التي لا عودة للوراء بعدها، إذ سوف ترتفع حرارة الكوكب، وذلك يقود إلى ذوبان الجليد في القطبين، بالتالي سوف يرتفع ماء المحيطات بما يغرق جزراً ودولاً، وسوف يصبح العالم قسمين متناقضين كالليل والنهار، كالثلج والنار، صحراء حارة وجافّة في جنوب الأرض، بمقابل أرض رطبة باردة في شمالها.

بين أيدينا الآن 15 سنة فقط، يمكن أن نستغلها في العمل على المدّ بعمر هذا الكوكب، ونُهدي فيها للأجيال من بعدنا مكاناً يستحقّ الحياة، أو نترك كلّ شيء على حاله وندقّ مسامير نعشه.

15 سنة تتطلّب منّا تغييراً كبيراً في صناعاتنا واقتصادنا، وكذلك في حياتنا اليومية بما فيها من أكل وشراب ومواصلات وعمل وسفر، فالتلوث الذي يسبّبه الغاز والنفط في مختلف استعمالاتهما، وبخاصة في المواصلات والصناعة، وقطع الغابات الممطرة لأجل تأمين مساحات لتربية حيوانات من أجل تجارة اللحوم، أو حرق الغابات قصداً لأجل الحصول على تلك المساحات بقوة الأمر الواقع، إضافة إلى الأسمدة الزراعية التي تُستعمل

بإفراط في الأراضي من أجل تأمين طعام الحيوانات في تجارة اللحوم أيضاً، والانبعاثات التي تصدر عن مختلف الأجهزة المنزلية التي نستعملها، كل هذا يتضافر ويزيد من خطر الاحتباس الحراري.

هذا ما نراه واضحاً وصريحاً الآن، ففي حين أنّ النهايات الكبرى جاهزة أو تكاد، ولا تحتاج إلا لبعض الوقت كي تلعب الدور المنوط بها، ثمّة نهايات صغيرة في المقابل، تحدث داخل حياتنا الشخصية بتأثير من أختها الكبرى، وأحياناً بدافع داخلي لا علاقة له بالخارج، والفرق بينهما أنّ الكبرى تحدث مرّة واحدة، بشكل تدميري قياسي كامل، بينما الصغرى تحدث مراراً وتكراراً، مُعيدة نفسها دون سأم أو كلل، مُتخذةً أوجهاً تدميرية مرّة، وأشكالاً من اليأس والإحباط، أو الانفصال عن العالم في مرّات أخرى.

كشف الحجر المنزليّ أساس العطب في الذات الإنسانية المعاصرة، حيث إنّ البيت هو الوجه المادّي للهوية الفردية، وهو أيضاً الفضاء المعنوي الأول لها، فإنّ نبرة الرفض للحجر، أو التدمر منه في أحيان أخرى، إنّما جاءت من إرغام الناس على الخلوّ إلى ذواتهم التي وجدوها ناقصة، وبهذا المعنى كان الرفض أو التدمر من الحجر ليس سوى بحث عن مهرب من مواجهة الذوات لنقصانها.

بدأت تلك أيضاً نهاية الوعود الحداثية بعالم مفهوم وأفراد قادرين يعيشون بأنفسهم ولأنفسهم. كأننا اكتشفنا فجأة أننا نعيش في كوكب واحد، كجماعات لا كأفراد، وأن حدثاً في أقصى الشرق سيحدّد مصير مئات ملايين الناس ممن ظنّوا أو اقتنعوا لوهلة أنهم بعيدون، أو كأننا اكتشفنا للتو أننا أقرب من أي وقت مضى لبعضنا، وأنّ مصائرنا لا يمكن أن تنفصل حتى تحت شعارات الفردانية الحالمة.

يمثّل البيت فضاء الهوية الذاتية، لأنّ الإنسان يصنع نفسه بشكل مستقل عن الآخرين في المراحل الحاسمة من حياته، تحت تأثيرات متنوّعة من آخرين طبعاً، ليذهب فيما بعد إلى المجتمع لكي يؤثر ويتأثر، يُثير ويُثار، لكنّه في حال ذهابه ناقصاً، أي قبل حسمه الكامل لما يحتاج حسماً من آراء ومواقف وهو اجس، فإنّ العالم الخارجيّ سوف يعطيه أقنعة وحسب، أو سوف يساعده في عملية ترقيع ذلك الاهتراء من دون أن يُقدّم له الحلّ الناجع، وذلك لأنّ الداخل، النّفْس والبيت بالدرجة نفسها، مسرح يجيب فيه المرء عن كلّ أسئلته، ويعيش فيه مواجهات حادّة مع هواجسه ومخاوفه ورغباته، ويفتح حواراً مع ذاته لا يسعى إلى اكتشافها، واكتشاف إمكانياتها ومعرفة

ركائزها وحسب، وبالتالي فإنه يسعى فيه إلى إعادة خلق ذاته في صورة يعرف تمام المعرفة أنها ما يريد أن يكون عليه.

بعد مشقة المواجهة التي لا تكتفي بالمراحل المبكرة وحسب، إنما تواصل الظهور في فترات لاحقة وإن بشكل متقطع... وبعدها ستجد ملامحك الأولى الواضحة، سوف تجد وجهك النفسي والداخلي، وكما تُعرف بوجهك الخارجي ستُحِب أن تعرف وتُعرف بوجهك الداخلي، وسوف تتقدم به نحو الآخر، ومن الطبيعي جداً هنا أن تتوقع مجيء الآخر المشابه لك، لأن نوع المواجهة التي خيُصت على مدار سنوات التأسيس تجعلك تستشعر الذين يشبهونك، وسوف تجد نفسك داخل دوائر تعرف أنها تناسبك، والأهم من ذلك أنك تعرف لماذا.

سوف يكون التفاعل مع الآخر إيجابياً للغاية، سواء مضى بك إلى الحب والصداقة، أو أخذك إلى العداوة. لأن كلاً من هذه المعاني يحتاج إلى ذات متماسكة، صلبة البنيان، لكن في زمن الاستهلاك أو الزيف والوهم، وزمن العلاقات الزاهية بقوة نحو التشبه بالأشياء والآلات، سوف تُوجَل المواجهات الضرورية لصالح إمضاء الوقت في تصفح برامج التسوق، أو الغرق في الألعاب الإلكترونية، وبناء عليه سيكون اللقاء مع الآخر هذا هو بالضبط ما يصنع النهاية الذاتية، ويجعل المرء يسقط في الفراغ، مرةً تلو مرةً، دون أن تكون هناك نهاية، فما يحدث هنا هو أسوأ أنواع النهايات، لأنها ببساطة لا تنتهي.

في الحجر صار الجميع يشعر بالحاجة إلى الجميع، لكن الحاجة هنا غريبة نوعاً ما، الجميع يحتاج الجميع ليُخفي ضياعه الخاص في احتشادهم. الحشد غطاء لتمزقات الذات، وتأجيل نفعي لمواجهة قلق الوجود، بما يسمح للإنسان أن يعود إلى منزله لكي يلتقي بنفسه لقاءً سريعاً، يخبرها فيه قناعته البسيطة والمريحة أنه ليس الوحيد على هذه الحال، وذلك يكفي ليكون جواباً عن كل الأسئلة الوجودية.

أن تكون وحدك في البيت مع هذا الوقت كله، ففي ذلك إجابات دقيقة، منك لك، عمن تكون، وما هي إمكانياتك، وما الركائز التي يقوم عليها كيانك. البيت والوحدة أول عتبات تشكيل الهوية. ليأتي بعدها الخروج إلى المجتمع ذاتاً كاملة، ذات ملامح واضحة، قابلة لتأخذ وتعطي.

وإذا قلنا قبل إنَّ النقصان الذي يكشفه البيت لن يكون في مُكنة الخارج ترميمه، فيمكننا أن نقول إن تصدير البيوت لكل هذا النقصان يخلق مجتمعاً مختلاً مليئاً بالثقوب.

على هذا، لم يكن المجتمع الصغير الذي بناه كلُّ منا مرآة تعطينا تعريفاً لأنفسنا. صحيح أن هذا المجتمع هو الذي يمنح الواحد منا هوية، لكنها هوية مزيفة، لأنها تقوم على نظرة أحادية، فأنت سيد الرقص في السهرات كما يرونك، أو خفيف الدم الساخر، أو طيب القلب الذي لا تساعده ظروفه. لكن للكورونا والحجر المرافق له رأياً آخر يقول إن هذا لا يكفي، فلن يكون لك أن تكون أنت ما لم تبتكر هوية خاصة في مساحتك الجوانبية، وهذه لا يمكن أن تحدث إلا في المراجعات التي تجريها مع نفسك وحيداً. أما ما دمت تحتاج إلى الآخرين لكي يعطوك مرآة تكون تمثيلاً لما تريده من هذا الوجود، وستأتي وتزيّف معنى تلك المرأة وتسميها تجاوزاً هويةً، فما أنت حين حُبست في البيت، من دون أولئك الآخرين، لا تجد من تكون، ولا تدري ما تريد.

هكذا مثلَّ الحجر نهاية الأشياء الصغيرة، أوّلاً حين كشف عن أزمة الهوية الفردية، وعدم رغبة البشر في اكتشاف أنفسهم، وثانياً في إقصاء الآخر بوصفه شريكاً من حياتنا، والاستعاضة عنه بتحويل دوره إلى مجرد مرآة للمتع الاستهلاكية الزائفة التي غدت كل ما لدينا من أنشطة منذ أفهمتنا الشركات الكبرى أن منتجاتها هي الجزء المفقود من هوياتنا الشخصية، الأمر الذي جعلنا نبتعد عن أنّ الإنسان واحد، وبالتالي عُزلت التجارب البشرية وجرى تقسيم العالم بحدود من نوع آخر يصعب اختراقها، وتلك هي الحدود التي صنعتها أوها مانا عن بعضنا البعض.

مثلَّ الحجر مسباراً لاكتشاف صلابة أو هشاشة العلاقات العاطفية، أو الزوجية، فمنذ غابت المتعة الترفيهية مع إغلاق الخارج ارتفعت نسب العنف ضدّ النساء والأطفال، الأمر الذي يعني أنّ كثيراً من الرجال، بشكلٍ خاص لأنهم ممارسو العنف هنا، يرون في الخارج مهرباً من ورطة الحياة المشتركة، وهذا يقول إنّ متعهم ليست سوى نوع من الهروب إلى الأمام، وحين اصطادهم فخّ الحجر انكشفوا فتصدّوا لكلّ خيارات حياتهم بالعنف. أزمتا مركبة: حجرٌ لأناس لا يريدون بعضهم البعض، وحجرٌ بين أناس يريدون بعضهم البعض.

فتح المرض عيوننا على الآلام في كلِّ مكان، فإلى جانب النساء والأطفال: هناك اللاجئون الذين يعيشون في أسوأ الظروف، ويتعرّضون لأشنع أنواع المعاملة. وهناك المشردون الذين يفتشون الطرقات ليعيشوا على

الأعطيات الصغيرة. هناك العمّال الذين يخسرون شغلهم عند أوّل مطبّ يمرّ فيه العالم، ويتركون دون ضمانات.

كَبُرَ المرضُ المشكلات بحيث جعلها تبدو مرئية. ومع أن الموت لا يزال أفضل مقاييس جودة الحياة، سوى أن عيوننا فُتحت وأسعةً على ألم غياب العدالة حتّى في الموت الذي طالما قيل عنه إنّه الأكثر عدلاً من حيث مساواته الجميع في قبوره. أخيراً وجدنا أنّه ليس كذلك، لا سيما حين يكون نشاطه أقلّ بين من يملكون المال لأنّهم يملكون فرص العناية وشراء الدواء، وأقلّ لدى الدول التي لديها مستشفيات مجهزة وتأمين صحيّ لكلّ مواطنيها من الدول التي فشلت حتّى في بناء مستشفى.

بكلمة كوروناية واحدة: الأزمنة الحديثة جعلت الموت منافقاً ومنحازاً. ساعدنا الإنترنت كثيراً في فترة الحجر، ولم يعد ثمة مجال لننكر، رغم دوره الكبير في مساعدتنا على الكثير من الأشياء، أنّه ساهم في تقليل الآخرين في حياتنا التي باتت تمضي دون لقاء كثير من الناس.

السؤال الذي ألحّ علينا جمعياً: ما الذي سيحصل لو أنّ الجائحة جاءت قبل عشرين سنة مثلاً؟ هل ستكون نسبة التقيد بالسلامة أكثر ما يجعل احتمال النجاة أعلى؟ هل ستستطيع الحياة الاستمرار مع توقّف الأعمال والمؤسسات؟ أليس الأونلاين نعمة تستحق الشكر والحمد؟ ثمّ كيف سنقضي هذا الوقت الطويل المملّ؟

لا شكّ أنّ طريقة حياتنا سهّلت التعامل مع المرض، بحكم قلة التواصل الفيزيائي، لكن ربما ما كان هذا الفيروس ليأتي أصلاً لو أنّ حياتنا ليست على هذا الشكل!

سارت الأفكار هنا من الكبير إلى الصغير، ضمن فرضية النهاية أو القيامة، حيث نعيش لحظة يتطابق فيها منطق العلم مع الرؤى الدينية، إلى درجة أنّنا أحياناً ننسى الحدود بين الأشياء فنظنّ الكتب المقدّسة خرجت بالأساس من المختبرات، أو نخال العلماء كهنة في المعابد!

يجعل السير من الكبير إلى الصغير الرواية أكثر ارتباطاً، ففي المتن الديني الإسلامي، مثلاً، تحتاج قيامة الساعة إلى علامات صغرى تمهّد الطريق لقدم العلامات الكبرى. هذا صحيح ومنطقي، لكن فرضيتي البسيطة أنّ النهاية الكبرى نهاية كاملة، نهاية نهائية ما من عودة بعدها، بينما النهاية الصغرى متفجرة انفجاراً تلو انفجار، لذا تنتهي ولا تنتهي، مثلها مثل الذات الإنسانية المطبوعة على طلب المزيد والسعي إلى الأفضل، فمنذ اللحظة

الأولى لوجوده في هذا الكوكب أصابت الإنسان لعنة السعي نحو الكمال. صنع السلاح، ثم البيوت، ثم المدن، ثم الحضارة، ثم صنع موت كل شيء. يدفع كل صنائعه شيء واحد هو الرغبة في الأفضل والأكمل، وهو يعرف في أعماق أعماقه أنه محكوم بنسبيته، ويعرف أن تصوّره للكمال بسبب ذلك تصوّر نسبي، وسيظل تصوّراً نسبياً، ولكنّ الإنسان بدون هذه النزعة المدفوعة بفقر نسبيته ليس إنساناً. هذه هي مأساته الكبرى. إنّه صانع كل شيء، وهو مدمّر كل شيء، أو واضع فكرة فناء الأشياء في أساس بنيانها. فهل عليّ أن أقول إن النهاية الصغيرة بدأت من هناك؟ من البداية؟ لا أدري!

مجرد البقاء في البيت

أحلام بشارات

كنت أستطيع قبل فرض القيود على الحركة، بين المدن والقرى، بسبب الوباء، أن أستعمل حجة: أنا مشغولة، لأغطي على رغبتني في عدم مبارحة مكاني، «أريد أن أعلق هنا، اتركوني!».

هذا ما كنت أفكر فيه على الدوام، لكن دون أن أبوح به. ولا يعني الامتناع عن قول ما أفكر فيه أنني أريد تحويله إلى موضوع للدفاع.

- ثم الدفاع عن ماذا؟

- عن البقاء في البيت. مجرد البقاء في البيت؟

- الدفاع عن حق الزمان في المكان!

اعتدت أن أعود إلى قريتي كل أسبوع أول انتقالي إلى رام الله العام 2011، وبعد سنتين أو ثلاث، أصبحت أعود كل أسبوعين، في مرحلة فاصلة بين الفترتين عدت كل يوم بالمواصلات العامة، صحت باكراً لشهور ووقفت وسط القرية، مقابل بئر «طبش»، على الشارع العام وسط القرية، في صباحات الشتاء الباردة، وكانت الوحدة تنعز، ومنذ صار لي بيت خاص، بدأت أستعمل كلمة «منشغلة».

كانت الحجة تنجح، كي أقول إنني غير قادرة على أخذ المواصلات العامة والعودة إلى القرية. لكن هذا الانشغال كان يجب أن يكون مفيداً حتى يكون مقنعاً كدليل، جارحاً كمشرط، صالحاً كذريعة، وكلمة مفيد رغم أنها كلمة فضاضة، إلا أنها صفة أي عمل يجعل من الإنسان يشتغل لصالح مصلحة ما، مصلحة تجعل منه عبداً لثقة أخرى، كالالتزام بالوظيفة لصالح صاحب العمل، وهي أي وظيفة عند أي صاحب عمل، ومجرد هذا الالتزام لا يشترط الحصول على أجر لتحقيق تلك العبودية، على الرغم من الحصول على ذلك الأجر، فالأجر من الأجر هو ضمان العبودية ذاتها، عندما يتحول الأجر إلى قيد، هو، لو فكرنا، ليس أكثر من إكسسوار لمواصلت دور العبودية، وتبريره، فالجميع يسعى إلى أن يعرفني، شأنني شأن الآخرين، على هذا النحو، ليسهل

التعامل معي، عندما أشبه الجميع، عندما أشبه من يحدثني، أو يتوقع مني نتيجة أو رداً على سؤال لو سألني أو تحدث معي مجرد حديث: كانت الغاية أن نصبح نسخاً من أولئك الذين يخرجون من البيوت فقط! العبودية وحدها، داخل الجماعة، تعطي مؤشراً، على مكتسب آخر من مكتسبات الزيف، ثم يرتبط هذا المؤشر بكلمة أخرى هي كلمة «مفيد». منشغل أي أنك تقوم بعمل مفيد، ومنشغل بما هو مفيد تعني أنك وصلت إذن لتراوح مكان «الأمان».

- لكن، لكم من الوقت تصلح كلمتا الأمان والفائدة، للاستعمال، مقرونتان بكلمة «الانشغال»؟

في حالتي، تصلح كلمة منشغلة للاستعمال شهراً واحداً على أبعد تقدير، وسوف تتأثر النتيجة بفضايا المجموعة التي أتعامل معها، فأنا لا أعيش وحدي، ولو كنت أعيش وحدي، فأنا أعيش وحيدة داخل مجموعة من المجموعات، كالعائلة أو الأصدقاء، أو أكثر من مجموعة في الوقت نفسه، وحيدة مع الناس كلهم، حتى الذين لا أرتبط بهم بشكل مباشر، وحيدة مع صاحب السوبرماركت لمجرد أنني أشتري من عنده الخبز أو البيض، وحيدة مع صاحب «الفورد» الذي أنقده ثلاثة شواكل كلما تحركت من وسط مدينة رام الله إلى الحي الذي أقيم فيه، والذي ستكون نسبة أن أركب في حافله مرتبطة بعدد الحافلات التي تتحرك على هذا الخط للمواصلات، وبعدد خروجي من البيت ودخولي إليه، وبعدد المرات التي صعدت فيها في المواصلات العامة، وبعدد الصدف التي جعلتني أصعد في هذه الحافلة دون غيرها، مع هذا السائق دون غيره، على الرغم من كل هذا، فهذا السائق يؤثّر وحدتي، فيقلل مساحتها بوجوده الضئيل والزئبقي وغير المكثرت:

فالحقيقة أنه لا يوجد وحيد كامل!

حدث وانشغلت نوعاً من هذا الانشغال، في شهر آب 2017، لكن الحكاية الحقيقية كانت أنني علقت في لبنان بسبب سحب جواز سفري الفلسطيني، التفت إليه موظف أمن صغير السن، حديث الالتحاق بالوظيفة على

ما استنتجت من سرعة حركته وتورد وجهه وهو يلتفت إليّ عاثراً على ما سميته «اللقيا»، وهو بهذه الصفات يريد أن يثبت لسيده أنه «مفيد»، التقط على جواز سفري ختماً للمعابر الإسرائيلية مطبوعاً على جلدة جواز السفر الفلسطيني من الخارج. بطبيعة الحال، لم أتحوّل إلى عصفور يطير عن الحدود ليحط في الأردن، الطرف الشرقي لفلسطين المحتلة، دون أن يلتقطني جنود الاحتلال الإسرائيليون، كما التقط ذلك الموظف هذه العلامة، فلا يطبعون على جواز سفري ما يثبت دورهم في تقليص وحدتي!

وكل من هذا الموظف الذي عثر على الطابع في بيروت، والجندي الذي وضعها على جسر «الليبي»، عبد لوظيفته، وبما أنهما عبدان ويعملان لصالح رب العمل، فعلى عمل الاثنين أن يكون مفيداً، ما دام يتلقيان الأجر مقابل، مقابل العبث بتنقيل وحدتي بين مدينتين!

سافرت لتوقيع روايتي «جنجر»، مع رسامة غلاف الرواية، الرسامة اللبنانية مايا فداوي. رسمت مايا الكلب جنجر، والقطة كشة، وكليمنص بروبها البرتقالي، وأما أم مرقص، بثوبها الفلسطيني المطرز. لقد تحمست الفنانة مايا ذات يوم، فقالت:

- لماذا لا نوقع الكتاب معاً هنا في بيروت؟
- ووقعناه في مقهى التاء المربوطة، في حي الحمراء، في بيروت.
- يحدث أحياناً أن أتورط في الانشغال من الداخل، تورطني «كُبرة» حيلتي. ففي الحقيقة أنا أحب أن أبقى في البيت.
- فما الذي دفعني إلى هناك، خارج البيت؟
- وهناك والبيت: مكانان. فمن دفعني من مكان إلى مكان آخر؟ ما هذه القوة التي حركتني؟

كأن الحياة هكذا أصبحت مجرد مكان خال من الزمن. حتى فعل الدفع «القوة» ليس هو المهم فيها:

المهم: هنا هناك. البيت وخارج البيت.

لم يرتبط «الانشغال» في لبنان بما سافرت لأجله، بل جرى تفسيره من خلال تأليف حكاية أنني عدت إلى رام الله، وانشغلت في رام الله، وبينما أنا منشغلة في بيروت أزور الأمن العام اللبناني كل صباح، في محاولة لتخليص جواز سفري الذي ظلت أدفع به عبر الأصدقاء، المتطوعين لاستعادته، حتى وصل إلى أحد جوارير مكتب المدير العام لـ«المديرية العامة للأمن اللبناني»، شخصياً، عباس إبراهيم! فكانت تذهب معي صديقتي الشاعرة الإيرانية مريم حيدري مرة، وتذهب معي صديقتي القطرية هنادي مرة أخرى،

وكلتاهما جاءتا إلى بيروت للقائي، دون فائدة سوى الذهاب والإياب من وإلى الأمن العام!

كان التفسير العملي لأهلي أنني منشغلة في رام الله، في التحضير لمؤتمر وهمي، حيث مكان عملي، وهذا يعني أنني، بينما كنت أعيش كل يوم بيومه فتقتصر أمنياتي على استعادة جواز سفري في بيروت، كنت محمية بكلمة «الانشغال»، فأقوم بأعمال مفيدة وأمنة في رام الله!

- ما الذي جعلني أخرج من البيت؟

أنظر إلى السؤال فلا أجد فيه سوى مكان واحد!

هل يعني هذا أن الخروج من المكان الذي أعرفه خروج إلى الفراغ، وليس مهماً إن كانت طريقة الخروج هبوطاً أم صعوداً في المكان، دفعاً عن حواف المكان أم الخروج منه بتحريك المفتاح في عين الباب وإيلاهما؟

وهنا أستطيع أن أنظر إلى الوراثة فأجد ليس حجم الكذب فيما حصل، وأسريت به لواحدة من أخواتي فقط حتى أحرر نفسي من قلق الآخرين: العائلة والأصدقاء، فالموضوع ليس علاقة له بالكذب، بل بتعريف الفرد داخل جماعته، أي من أين يكتسب الفرد حريته في أن يتحرك، وأن يكون قادراً على قول حقيقة رسم خارطة حركته، دون تكلف، وهو يغادر مكانه أو يظل فيه، أي وهو يجد موقعه فوق الأرض، في سفره في العالم، إن ذلك أعلى مراتب شغفه؟

ثم من أين يكتسب هذا الفرد تعريفاته، من معجمه الفردي، أم من معجم الجماعة، ليستطيع بعد ذلك أن يضع تعريفاً للمفردات التي يستخدمها؟

كلمتا الفائدة والأمان مثلاً، ثم كيف أنني كنت التطبيق العملي لنموذج العبودية الطوعية، مع أنني ظاهرياً أنا المثال العملي للثورة على تلك العبودية، وكلمة ثائر التي تحمل معنى الرفض، والتي تجد، داخلها، تبريراً مؤقتاً لأن أكون عبداً، لكن بمجرد توفر الطوعية فيها، فكل ذلك ينتفي، الثورة تنتفي، أنا نفسي نفيت نفسي من تلقاء نفسي!

- إذن ماذا يفعل الفن هنا؟

لقد تكلفت حين قلت إنني منشغلة، بينما كنت أذهب كل يوم لزيارة الأمن العام، للاستفسار عن جواز سفري. لقد أعطيت للآخرين، خارج بيتي، فرصة مصادرة حريتي تماماً، فأصبحت كأنني في سجن، إلى الحد الذي أصبت جراه باضطرابات في جهاز الهضم والعصب! أمسكت صديقتي التي لولاها، وصديقتين أخريين، لصرت بلا مأوى، إصبعي الإبهام والسبابة، وهما يفترقان، وثبتهما، اعتقدت أنهما سيواصلان التباعد عن بعضهما البعض

دون تدخل مني، حتى انفصلاً تماماً، ثم عن قدمي، لأصبح امرأة بثلاثة أصابع في قدمها جراء خروجها من بيتها! وعندما طارت الطائرة التي كان ينبغي أن أكون على متنها عائدة إلى البيت، كنت أستجيب للضغط القوي على معدتي فأضع رأسي في المغسلة في أحد فنادق الرملة البيضاء على الطرف الجنوبي من كورنيش بيروت، لاستفرغ هذه الكلفة.

كتبت وأنا أجلس على حافة بركة السباحة، فظنني عجوز لبناني، قرأ لي شعراً عمودياً لنزار قباني يحفظه عن ظهر قلب، الخادمة القادمة مع واحد تسبح في البركة، فقلت له:

- لا... أنا شاعرة.

وقرأت له:

مقاعد حمراء
منثورة على النوافذ
خالية من الأفكار
خلفها ستائر رمادية
ساكنة، ليس بيدها فعل شيء
كل هذا الصمت الملون أراقبه من هنا؛
من جانب البركة الزرقاء
ولا يحرك في الرغبة لمناداته.

كان كل ما يحيط بي خارج البيت، في ذلك المكان، الوحدة، حتى طعم الماء والأكل والهواء، وكل ما كنت أريده، وأنا أدلي ساقِي في بركة السباحة، وأحدق في المناشف الزرقاء المنثورة فوق المقاعد الحمراء التي ذكرتها في القصيدة، فأشعر بالفراغ الكبير داخل المكان:

هو أن أكون في البيت.

أن أنشغل في البيت.

يعود البيت مرة أخرى في هذه العبارة إلى اقتران الانشغال بالمكان الذي أعرفه وألفه، الانشغال، بما له من صفات الفائدة والأمان، يعودان ليقترنا بالبيت. إن كان هناك أجر في البيت يحصل عليه العامل فيه، صاحبه، فهو بقاء صاحبه في البيت، وإن كان من عبودية، فهي أن يكون الفرد عبداً لنفسه. الانشغال في البيت يعني الخضوع لعبودية النفس للنفس.

أن استعمل الكلمة، وما توحى به من معانٍ، هناك، أن أتكلف ثمن ثلاث مفردات دون أن يرف لي جفن.

أنظر هنا كيف أن للكلفة أيضاً معنى نسبياً، وكيف أن كل معنى فضفاض لا تكفيه كلمة ضيقة لتعبر عنه، وأن القيمة لا يفرضها السياق بقدر ما تفرضها الحاجة إلى الاستعمال من أساسه:

فلو لم أخرج من البيت، لو لم أسافر، لما اضطررت إلى كل هذا! ولماذا فكرت بتوقيع الكتاب في مقهى التاء المربوطة في بيروت، ألا يكفي كتابة الكتاب ثم نشره؟

- ألا يكفي الكاتب أن يكتب؟

ما الذي يجعلني مضطراً لرؤية كتاب آخرين إذا كان ما يؤرقني هو كيف أحصل على قصص أكتبها، وهذا ما يمكنني أن أفعله لو تأملت في كلب يلهث، أو وردة تتفتح، أو ستارة ترفرف، أو جرس يرنّ، وما الذي يضطرنني إلى المشاركة في مؤتمرات، وأنا كاتبة، ولست بائعة جواله أو شيء من هذا القبيل؟

لماذا لا أضع حداً لرغبتني في الحركة وضدها، أي أنني أنا الأخرى:

- لماذا أشارك في تسهيل تعريض الفنان وفنه للعبودية بالخروج إلى العالم الخارجي ومقابلته؟

يطرح فيلم (certified copy)، أسئلة حول صناعة القيمة، فمثلاً أشجار السرو التي رآها جيمس وماري، على جانبي الطريق، فقال جيمس إن كل شجرة منها لا تكرر الشجرة الأخرى، إنها أشجار بمثابة التحف الفنية المعروضة في الخارج، لكن الجميع يمرعنها دون أن يعطيها قيمتها الحقيقية، تلك القيمة التي كان سيصبح لها ثمن لو وضعت هذه الأشجار في متحف ما، لكنها الآن متروكة يستمتع بها الجميع بالمجان!

هذه الأشجار التي لو فكرنا بوضعها في كتاب، ليس لإعطائها قيمة، بل كأننا نمارس سلطتنا على الآخرين فنقول لهم:

- إنها تمتلك قيمة، انظروا.

لكن لا يمكن وضع كل شيء في كتاب واحد كما جاء في رد جيمس على مقترح ماري بوضع هذه الأشجار في كتاب. كتابه هو في النقد الفني.

لا يمكن وضع الوحدة في كتاب أيضاً لتكتسب قيمتها.

الوحدة ذات قيمة وحدها، متروكة وحدها، لنفسها، حتى بعيداً عن صاحبها. خارج البيت، أيضاً، الذي يسمى بيت الوحدة، باسمها:

وحدة.

إن خروج الجنين من بطن أمه لمواصلة الحياة، ومغادرة المواطن لبيته كل يوم لتأمين لقمة العيش، والسفر خارج حدود البلاد للدراسة أو السياحة،

أولست كلها كلف زائدة؟ استدعت انشغالات من أنواع ما، كان الهدف منها في المعظم ليس التستر على الحقيقة، بل جعل كل شيء يبدو مفيداً وأمناً: في حالة الجنين لاستمرارية الجنس البشري، ولإطعام الأولاد وإنمائهم كما في حالة المواطن، وفي حالة المسافر لإعطاء الحياة، التي خرج الجنين من بيته الآمن إلى بيتها المسكون بالمخاوف، ذلك المعنى: أنها تستحق أن تعيش؟

ثم في حالتي أن يصبح مفسراً ومبرراً لأهلي أني لا أضيع وقت الحياة، إنني أستثمره بشكل جيد، إنني وحيدة تستثمر وقتها بكل ما هو مفيد، ما يؤكد انتماءها لجماعتها، لأنني كلما قلت لأهلي، كأني أَدافع عن غيابي:

- أنا منشغلة بالكتابة!

كتابة! كلمة غريبة.

ماذا تفعل هذه الكلمة في الحياة؟ ما معنى إسناد كلمة انشغال بها؟ لماذا ينشغل إنسان على وجه الأرض بالكتابة؟ وكتابة ماذا؟ ولن ينجو الأصدقاء من هذه الإشارات. ستختلف ملامحهم فقط. وستصلح هذه الإجابة مرة أو اثنتين أو ثلاثاً، لكن ليس إلى الأبد، فما معنى أن ينشغل المرء بالكتابة طوال حياته؟ ما معنى أن تنشغل امرأة بالكتابة طوال حياتها؟

- إنها مجنونة، أو مريضة نفسية أو فاشلة اجتماعياً؟ قد تكون عديمة الثقة بنفسها، فاقدة لأهلية المرح، متدنية القدرات في مهارات الطبخ والرقص والتكيف والجمال... إلخ

عدت من مدينة بيت لحم بعد أن زرت مكتبة تنوين، في 21 من شهر كانون الثاني/يناير 2020، أي قبل شهرين من فرض القيود على الحركة في فلسطين، ومعني كتاب: إذا وقعت في حب كاتبة، ترجمة المترجمة الفلسطينية الشابة أماليا داود، والكتاب مجموعة مقالات إبداعية لجانيس والد وآخرين، كنت هناك لتوقيع روايتي مصنع الذكريات، بتقديم الروائي والباحث الصديق أسامة العيسة، عدت بالكتاب مملوءة كأني أعود بجواب، عن سؤال لم يطرحه الآخرون. وددت لو أمرر الكتاب على كل من حولي، ليقرأوا المقالة في صفحة 139، لجانيس والد بعنوان: أشياء لتتذكرها إذا وقعت في حب كاتبة. يبدأ والد في هذه المقالة نصائحه بقوله إن عالم الكتاب عالم مختلف لكنه جميل، ويؤكد متعجباً من عظمة الارتباط بكاتبة.

يا إلهي، هناك من يمجّد الكاتبة كما يمجّد مثمناو الخشب النجار!
عظيم. مدهش. منصف.

ثم يورد والد نصائحه على أمل أن تساعد من يعيش في جوار الكاتبة على فهمها، ثم ينهي مقالته بدعوة إلى التأكيد على استحقاق الكتاب إلى تفهم من حولهم.

أكاد أهتف مع كل نصائح والد:

- أوه. وعيناى تدمعان.

ما هذه الوحدة؟

أليست الوحدة لكاتبة أن تبكي دون أن تجد طريقة تشرح فيها للآخرين سبب بكائها، بل تجد الوقت الكافي لكتابة ما لم تستطع شرحه، ثم أن تتوارى في بيتها؟

هذه الوحدة التي بدأت تجريبها بعيداً عن سائق « الفورد » وصاحب السوبرماركت منذ 23 من شهر آذار/مارس 2020.

زيت وزعتر وكينوا

عبد الرحمن شبانة

بعد مرور اليوم الثاني عشر من الحجر المنزلي، بات من الضروري الخروج مرة أخرى لشراء مواد تموينية أهميتها متوسطة. لم تزعجنا مراقبة الثلاجة التي تناقصت محتوياتها بكميات محسوبة، ولم تزعجنا قائمة المشتريات التي طالت هذه المرة.

نحب كتابة القوائم بغض النظر عن نوعها.

تجرأنا في الأيام الماضية على تجربة وصفات جديدة، عالمية ومحلية، ونقعنا أخيراً كيلو فاصوليا بيضاء حبة كبيرة الذي انتظر عاماً أو أكثر على طرف رف المونة، نقعنا الفاصوليا ليلة كاملة قبل سلقها وطبخها. نفكر اليوم، أنا وزوجتي في نقع حمص حتى ندل أنفسنا بالخيارات الممكنة التي سيوفرها لنا سلقه في اليوم التالي.

حمص، مسبحة، فتة، فلافل، مجردة حمص... إلخ.

لم يتوفر الوقت قبل أزمة الكورونا لمعالجة البقوليات وتناولها، على الأقل لم أشعر بشكل شخصي أن تلك العملية «جايبة همها». قد سنحت الفرصة الآن إلى توسيع قائمة الطعام، هناك وقت كافٍ للتفكير والإعداد جيداً. التنازل للبقوليات ومراعاة حاجتها للنقع مثير للاهتمام.

أعترف، أنا بطيء.

تعددت الأطباق على طاولة الإفطار بداية الأزمة قبل أن تتناقص بشكل غير مقلق. ثبت من قائمة الطعام طوال الأيام الاثني عشر الأولى صحن الزيت والزعتر والبيض بأحد أشكاله المطبوخة أو نصف المطبوخة. استسلمت ذلك اليوم كرتونة البيض الثانية، آخر الصامدين من قائمة المواد الضرورية لإعداد عدد لانهائي من وصفات الطعام.

الخروج من البيت مخاطرة غير ضرورية بعد، فما زال على الطاولة من الزيت والزعتر ما يكفي للإفطار عشرات الأيام إن استطعنا إقناع شهيتنا بذلك.

أثبتت نظرية الزيت والزعتر سابقاً وتأكدت منها بينما كنت طالباً في جامعة بيرزيت. جودة الطعام على الطاولة ليست بتلك الأهمية، وتكرار الأطباق كان عادياً جداً. لشراء السجائر المناسبة أهمية أكبر في تلك المرحلة. أود التحقق مرة أخرى من النظرية، وثبتت قناعاتي بها، حتى أستطيع فرد عضلاتي على الأجيال القادمة بفتواي المجربة.

الزيت والزعتر يكفيان للبقاء قيد الحياة.

يا لي من رجل مختلف.

أفكر الآن، هذه اللحظة بينما أحرق في صحنى الزيت والزعتر، في أسباب إعجابي الشوفيني بهما. ربما كمن مصدر قوتهما في محلية مركباتهما البسيطة، ولشعوري العميق بقرب شجرة الزيتون، ووفرة نبتة الزعتر على سفوح التلال المحيطة. أدعي وأنا على يقين من سذاجة ادّعائي أن هناك حقيقة تختبئ في الفلسطيني بشكل خاص، مفادها أنه لن يتصور جوعاً إن راهن على الزيت والزعتر لصمود أسطوري.

الأساطير ملاذي الأخير.

بينما كانت عاطفتي الطفولية تتلاعب بصحنى الزيت والزعتر، لازمني صوت طائرة الاحتلال الزنانة كخلفية مستمرة غير مرغوب فيها. سرحت تلك الطائرة فوق سماء مدينة رام الله في ذكرى يوم الأرض الفلسطينية العام 2020 المحتد هذا.

مرعب صوت الطائرة الزنانة إن فكرت فيه بشكل منفصل، ولكنه عادي إن سبقته إلى السيطرة على خاطري جائحة عالمية أكثر رعباً، وألويات أقرب أثراً.

تساءلت: كيف تستمر أدوات الإخضاع هذه، أقصد صوت الطائرة الزنانة، وعلى أبوابنا والشبابيك جائحة عالمية؟

في هذا الفاصل الذي فرضه الفيروس، كل شيء ساكن وبعيد عدا أفكاري عن الزيت والزعتر، وخلفية صوت الطائرة الزنانة تلك.

ماذا تبقى من أدوات الاحتلال غير خوفي منه .

أمان نسبي، أنا بعيد كفاية عن أقرب جندي، أجلس على الطاولة، أحرق في صحنى الزيت والزعتري بعد أن فرغت الصحن الأخرى. غير ذلك، لا أقوم بفعل غير الكتابة على هذه الطاولة هذه الأيام.

أستشعر خوف الاحتلال منى كلما طالت فترة الانفصال لا خوفي منه .
لا يستطيع ذلك اللعين البقاء دونى حتى لأيام عدة، تراه يسارع ليقتم ما تبقى من بيوت لى، يأتينى كممماً خوف عدوى الفايروس أثناء المداهمة . يسرق بعض الحياة منى قبل أن يهرب ببطء مثير للشفقة .
هم خائفون أيضاً .

علاقة القوى بينى وبين الاحتلال الإسرائيلي ليست مقتصرة على الآثار المباشرة للقمع من إفناء، ونفى، واستبدال، بل هى أعمق وأشد، تجذرت منذ عشرات الأعوام حتى باتت قهرية مَرَضِيَّة، تشكل كلانا بوعى ودونه .
الإخضاع عادة المحتل الواجبة، والخضوع صورة الضحية المثالية .
لُعِنًا عندما ظننا أن العالم لا يتعاطف مع الأقوياء، فجلسنا متربعين فى القطب المريح من ثنائية الإخضاع تلك، المحتل الإسرائيلي قاهر، والفلسطينى ضحية .

غذى كلانا الآخر حتى استوت معادلة العالم الظالم، كلانا يستند إلى الآخر حتى يبرر فعله ورد فعله . يسرقون الهواء والماء وتراب الأرض ونكتفى بأنين الضحية المتواطئ .

لا مهرب من برائن ثنائية القهر إلا باقتصاد مقاوم، يزرع ويصنع . اقتصاد فلسطينى واع، يدرك الفرق بين السلع الأساسية، والزوائد الترفيحية مهما غزت الرفوف والأرصفة، اقتصاد فلسطينى يملك القرار، يتناغم مع أطباق طاولة الطعام .

توقفت عن تفكيرى الثورى وغضبى المبرر فى لحظة يقين .
حدثت نفسى،

الرحلة، أو الرحلات التى خاضتها مكونات الطعام حتى وصلت هذه المائدة أمامى تتجاوز فى تعقيدها فكرة انفكاكى المنشود عن الإسرائيلى وتحررى منه، فهناك فلسطينيون وإسرائيليون لا يحملون الحياة دون الكينوا المستوردة من دول أمريكا الجنوبية . نعم، تلك الكينوا التى يحصدها الفقراء هناك .

إذاً، ما يجول فى خاطرى هراء،

الحرب أكثر تعقيداً مما ظننت ، وهناك آخرون غيرنا في السوق العالمي
الحر.

بعيداً عن الطائفة الزنانية ،
قريباً أنا بين صحنى الزيت والزعتر.
أنظر إلى وعاء يحوى الكينوا المنقوعة على الرف فى المطبخ.

لا دخل للعالم بتجربتي الأهم ،
أبحث عن وجبة مستقلة . هل هناك ؟

اللهو الخفي

خالد حوراني

اليوم هو الخامس والثلاثون من أيام الحجر الصحي، والثاني على فرض حظر التجوال في بعض المناطق من مدن الضفة الغربية. نواجه تصاعداً في الإجراءات بسبب الزيادة الملحوظة في عدد الإصابات بفيروس كورونا، للحيلولة دون انتشار المرض على نطاق أوسع. هذا ما تقوله وزارة الصحة والجهات الرسمية على الأقل. لكن الأمور تحت السيطرة، فيما لجنة الطوارئ المعنية بمكافحة الوباء تقول: في حال الضرورة ستتخذ مزيداً من الإجراءات حسب تتبعها لمسار الخارطة الوبائية في البلاد.

رغم الحظر، خرجت عند المساء لأتمشى قليلاً في محيط الحي الذي أسكنه، هدوء تام يخيم على المكان، الناس ملتزمون في بيوتهم، شوارع خالية من المارة، وحدي أنا الآن في شارع أبو العلاء المعري، حرصت هذه المرة ألا أبتعد كثيراً عن البيت، تجنباً للمشاكل. يبدو أنني لم أتابع الأخبار جيداً، أو أن لدي نقص معلومات، ولم أكن أرغب، على أية حال، في سماع المزيد من التفسيرات من رجال الشرطة في حال أوقفوني بالصدفة، ولن يفيدني حينها أن أشرح لهم موقفي من الإجراءات، أو بماذا أفكر عن الحياة، وعن الفيروس في هذه اللحظة.

أنا المواطن المجرد من تفكيري الآن، وهم السلطات التي تعطينا التعليمات، في الوضع الطبيعي لم أكن لأهتم لتدابيرهم. كنت سأكون مشغولاً الآن بأمر ما، أفلها عدم الاستماع إلى توجيهات الحكومة. وبالكد استطيع توفير بعض الوقت للمشي مع أحد الأصدقاء، أو أن أذهب بمفردي للنادي، أو كنت ربما لأذهب إلى مرسمي في شارع «بطن الهوا» لأقوم بإنجاز بعض الأعمال، لا بد أن علي الكثير من الأشياء غير المكتملة. كنت لأكون في لقاء مع أحد الأصدقاء أو في اجتماع ما، أو أن أذهب إلى زيارة الحجة ربما. أي شيء غير هذا الشعور بأني متسلل بلا هدف محدد.

لم أكن أنا الذي يسير في الشارع الآن، كان الولد الذي كنته أيام حظر التجوال الذي كانت تفرضه سلطات الاحتلال على الفلسطينيين كعقاب

لهم، ومن أجل السيطرة على حياتهم. كنت الولد الذي يراقب حركة الدوريات من فوق الدور قبل أن ينزل إلى الشارع كنوع من الرفض ومحاولة لممارسة الحرية المسروقة واحتجاج على ما يخطط لنا كبشر. هذه المرة الأمور تختلف بالتأكيد.

قلت في نفسي: بلا ولدنة، لماذا لا أعود أدراجي إلى البيت؟ وأتمشى في الحديقة دون أن أرتدي الكمامة على الأقل، ويمكن أن أقتل الوقت الفاضل عن حاجتي بتقليم بعض النباتات. ألم أكن أنا من يحتاج إلى الوقت لفعل ذلك؟

جعلتي كلمة حظر تجوال أعود إلى الماضي، وصرت أتخيل دورية مباحثة للاحتلال عند زاوية الشارع، صارت أنفاسي أسرع عند هذه الخيالات الغريبة من وراء الكمامة الزرقاء السماوية. لم تكن المدينة خالية بهذا الشكل منذ وقت طويل، لا أحد يؤنسني في هذه اللحظات، وغالباً الناس على حق.

وأنا أحت الخطي باتجاه البيت، وإذ بدورية شرطة تنعطف يمينا من جهة المسجد باتجاه الشارع الذي أسير فيه، يا لسوء حظي وبإلهذا الإحراج. سأقول لهم فقط إنني أستنشق بعض الهواء، وإنني ملتزم بالتعليمات، لم توقفني الدورية ولم تأبه بي أصلاً، وكأنني غير موجود في الشارع وأخترق الآن حظر التجوال بلا مبرر كافٍ، لم تمنعني حواجز المحبة كما سماها المتحدث الرسمي من المسير وكأنها محبة أو حواجز غير موجودة إلا في رأسي الذي يبدأ باستعادة الذكريات عند الأزمات.

إنه اللهو الخفي.

أستعير ويدي على قلبي هذا المصطلح من الثقافة الشعبية المصرية في الغالب، مصطلح غامض بعض الشيء أو هو يحيل إلى المجهول أو الطرف الثالث عندما يلبس العدو طاقية الإخفاء. لكن، والحال هكذا، الآن يبدو أن المصطلح مناسب أكثر لوصف الحالة مع فيروس كورونا. عندما استخدمه أحمد زكي وسعيد صالح في مسرحية «العيال كبرت» لحبك قصة اختطاف شقيقهما يونس شلبي، كانت العصاة المزعومة مجرد مزحة، أما الآن فيبدو

أن الأمور جدية. المطارات أغلقت، وشوارع العالم خالية، والمستشفيات تعج بالمرضى. هذا الفيروس مش مزحة، تعطلت الحياة بالكامل في أصقاع الأرض كلها. ولكن حتى تمر هذه الصورة القاتمة التي يعيشها العالم هذه الأيام، لا بد من التسلح بأشياء أخرى غير العزلة والشك والخوف من كل شيء حولنا.

غير معقول أن تكون العزلة هي السلاح الوحيد المقترح في مواجهة الفيروس. وسط إغلاق كل شيء حولنا حتى مناطق السلوى والطمأنينة للإنسان، كالمساجد، والكنائس، والمتاحف، والمقاهي، والبارات، أغلقت. أين الدراويش، والمؤمنون، ومحبو الفن، والاجتماعيون وصيادو الفرص؟ أين أنتم يا عباد الله الطيبين؟ أقول لنفسى سأكتب ذلك عندما أعود إلى البيت.

قضيت معظم الوقت أثناء الحجر المنزلي مع ابني عمرو الذي توقفت دراسته في كلية دار الكلمة مع انتشار الوباء أولاً في مدينة بيت لحم، وعاد أدراجه إلى بيت العائلة كما يفعل جميع الناس في الأزمت، وكان ذلك، بالنسبة لي، أمراً حسناً، عاد ومعهُ آتته الموسيقية الجديدة الساكسفون، ومعهُ فائض الوقت ليتدرب عليها، وليقوم أيضاً بالمشاركة في إعداد موسيقى لراديو على الإنترنت، كنت أطرب معه وأنا استمع لخياراته الموسيقية من الصالة المجاورة، كان هو الفنان بامتياز غير العزف، يقترح علي مشاهدة هذا الفيلم أو ذلك، فيلم يقدمه لي كضرورة لا بد من مشاهدته، وأنا الطباخ أو البستنجي في هذا البيت، كنت كلما أبحث عن الفنان الذي في يخرج عامل الصيانة.

اليوم السابع والأربعون من أيام الحجر الصحي، وعلى الرغم من معرفة ذلك، فإنني لا أعرف ما هو اليوم بالضبط، وفي الحقيقة لا أَسعى إلى ذلك، جمعة مباركة أو أحد حزين، أو يوم سبت، أكتب ذلك الآن دون أن أعني اليوم أو التاريخ بالضبط. من الناحية التقنية سيكون ذلك ممكناً بالطبع وبكل سهولة أن تنظر إلى الهاتف، أو إلى التلفزيون، أو إلى جهاز الكمبيوتر لتعرف اليوم. لكنه شيء آخر الآن يتعلق باختلال الساعة البيولوجية، وحضور اللاجدوى واللاطمأنينة.

على غير عادة الأوبئة السابقة أو الفيروسات التي أصابت البشرية، أحدث هذا الفيروس تغيرات كبيرة، ولا يزال، على سلوك الناس وأنا منهم، تغيرت عاداتي وعلاقتي مع الأشياء والأفكار والناس، إحساسي بالمكان الذي هو البيت في هذه الحالة، وإحساسي بالزمن تغير أيضاً. علاقتي مع المغسلة والجل المعقم والكمامة، بعد الصدمة جاء الإحساس بالضجر أو عدمه، جاء الإحساس بالخذر، لم يعد الفن وممارسة الرسم أو الكتابة لتساعدني كما في

السابق. أحسست أن الوقت يسير الآن بشكل دوار، وليس في خط مستقيم إلى الأمام، لا مشاريع ملزمة، لا مهام أو واجبات ضرورية أو شغل بمواعيد نهائية، كل شيء توقف مع تطور الفيروس، وتطورت معه الأعداء بدون وخزة ضمير. حررتنا الكورونا من الالتزامات، وتوقف الركض والهرولة، أصبحت الحياة «سلو موشين» عيشاً بطيئاً على أقل من المهمل، أو كما يقول المثل الشعبي (أكل ومرعى وقلة صنعة) العمل الذي يمكن أن تنجزه بساعات أصبحت تمطه على الأيام، زراعة شتلات وزعتها البلدية تستغرق ثلاثة أيام، وتقليم الدالية في اليوم الذي يلي ذلك، الصعود إلى السطح لإصلاح الخزان يوم الخميس، طوي الغسيل يوم الأحد، وهكذا أصبح جدول المواعيد رخواً وبيتوتياً إلى أبعد حد. أصبح المنزل هو الجغرافيا التي يمضي بها التاريخ، هو المسرح الذي تسير عليه الأحداث. الزيارات أصبحت معدومة في البداية، ثم محدودة جداً فقط لبعض المقربين، نجلس متباعدين في الحديقة. تتبادل الحديث والنقاشات بالقضايا العالقة وتتبادل الابتسامات ونحن لا نصدق الأخبار، أو نسخر من تصديقنا المبهم. هذا الوقت الذي سرعان ما تحس به بالرغبة في العودة إلى الكهف، إلى وحدتك. يبدو أن النقاش خلط عليك الأمور، أو أن ابتعاد الناس عن بعضهم البعض أصبح مألوفاً نوعاً ما، وضرورياً ليس للوقاية من الفيروسات فحسب، وإنما لراحة النفس من الآخر ربما، وليس كما يقول إحسان عبد القدوس «إن الراحة الحقيقية، هي أن ترتاح من نفسك». تقول وتسمع الأفكار والآراء نفسها التي بثت على الفيسبوك، أنت وهم تعرفون آراءكم جيداً، وحجم سوء الفهم أو التوافق على حاله، لا جديد إذن ونحن نرسل أفكارنا بالبث المباشر عبر وسائل التواصل إلى بعضنا البعض، فما الفائدة من الكلام المباشر من خلف الكمامة، ولكن بالعين المجردة؟

نواجه هذا الوباء كبشر دون أي خبرات سابقة تذكر للأسف، ولا أدلة أو معلومات كافية عن الذي يحدث، ولا معرفة بالغد والمصير، عماء قد يلجأ كل واحد منا فيه إلى متابعة التقارير والأخبار والتحليلات حتى تلك المتناقضة منها، لكنه يعود في النهاية إلى رأسه هو وعزله هو، يعود إلى حواراته الذاتي إلى مصيره المبهم. التفكير الجماعي لم يعد يسعف أو يجيب عن الأسئلة المعلقة.

في مواجهة الذات، يبدأ الإنسان بالتذكر ويبدأ الماضي بالحضور. ماذا على الإنسان أن يفعل في هذه اللحظات؟ هل يفكر في الآن أم في الماضي؟ وماذا عن المستقبل؟

حياة جديدة يقترحها الفيروس، فمن الصعب أن تبقى طبيعياً إن لم يكن لديك ما تفعله.

عندما يكون الإنسان في السجن مثلاً، فإنه ينتظر لحظة الإفراج عنه بفارغ الصبر، يتطلع إلى معانقة الحرية، ويصبح كياناً يسير بهذا الاتجاه، أو تكون بلاد ما في حالة حرب أو تحت احتلال، فإنها تتطلع إلى النصر أو إلى حل ما. باختصار شديد، عندما تتأزم منطقة ما، أو مكان ما، فإن الأمل يصبح معقوداً على أماكن أخرى كمناطق ليست في الورطة نفسها لتكون عاملاً مساعداً أو مكاناً للهرب في أسوأ الأحوال، أما أن تكون الأزمة والحرب في كل مكان، فعندها تضيق الجغرافيا مثلما يضيق الزمان.

كانت مشاهد حيوان الكانغرو من بين أشياء التي قامت بيثها وكالات التلفزة العالمية وهي تركز جماعات هاربة في صحراء أستراليا بسبب الحرائق كقيلة بإشعال أضواء الخطر الذي يدهم الحياة على الأرض، لقد أرسل الكون العديد من الإشارات قبل ذلك بأن الخطر على الأبواب بسبب سلوك البشر غير المتوازن تجاه الطبيعة والحياة بشكل عام، لم ننتبه لكل تلك الإشارات والحرائق للأسف.

من المؤسف أنه بعد غزو الفضاء، والتقدم العلمي الهائل، وفك شيفرة الأدمي، وتعديل الجينات وخلافه من العلوم المبهرة، يأتي العلم في مواجهة هذا الفيروس ليقول فقط «غسل يديك، وخليك بالبيت»، إلى أن يقضي الله أمراً كان مقضياً، شيء مقلق فعلاً أن يقترح العالم إلى الآن العديد من وسائل الوقاية، ولا علاج واحد فقط.

في أحيان أخرى كنا نرى العالم بطريقة مختلفة، ونحن ننظر إلى الحياة من زوايا متعددة، وهذا من طبيعة الأشياء. الآن أصبحنا وكأننا ننظر من الزاوية نفسها، نرتدي العدسات نفسها، ولكننا لم نعد نرى الشيء نفسه.

سواء تطور فيروس كورونا في الطبيعة، باختلاط فيروسين أو أكثر، وتطوره في جسم كائن حي واحد أو أكثر في تلك البلد أو ذاك، أو ورد ذكره في الكتب وأفلام نهاية العالم والخيال العلمي، الفيروس ابن نواميس هذا الكون، والداء موجود كجوهر مثلما الداء موجود كجوهر أيضاً، في مكان ما هناك، حتى لو لم يتعرف عليه العلماء والأخصائيون بعد.

ما أن بدأت تنقش تدريجياً غيمة الكورونا السوداء في بعض المناطق، وتخف الإجراءات الصارمة، حتى بدأت نذر عودة نشاط الفيروس من جديد. وقد أصبحت الإصابات والوفيات للأسف الشديد في يوم واحد أكثر بكثير من الإصابات على مدار الأشهر الثلاثة الأولى. لكنها الآن أعداد بدون ضجة، وبدون حجم الفرع الذي كان مسيطراً وبلا حظر للتجول. في شهر آب، كنت أستمع إلى الأخبار وأنا في سيارتي، قالت المذيعة: في فلسطين 7 حالات

وفاة، وأكثر من 678 إصابة حصيلة يوم واحد. في المحافظات الجنوبية والشمالية كان هذا الرقم سيكون مفرعاً في الأشهر الثلاثة الأولى من عمر الفيروس. الآن وكأن شيئاً لم يكن. وكأن السباق قد أصبح فقط على اللقاح، وليس على الفيروس المستجد.

عوامل على وشك أن تأتي

كارلوس سيراه

نعم. نعم، أنت كائن. هكذا تخبر نفسك حتى وأنت لا تصدق ذلك. شيء ما يضمني. أخبر نفسك هذا اليوم، هذه اللحظة، وهذا الحاضر ينفتح، مشعاً وناضجاً، ينفتح.

تأتي إلى ذهني مارفيل وأركنساس، التزام بياتريس وحبها، وهم يأخذون شكلاً حقيقياً، وهم موجودون لتتعلم منهم ... الحديقة، والتاريخ، والصوت. تعلم. أنت. نعم.

تخبر نفسك، أنا اختلاق، أنا قصة عن نفسي. تخبر نفسك بأنك مخلوق من مادة ناعمة. من جلد وأنسجة، من أحشاء ودماغ. تخبر نفسك أن تنصت. تخبر نفسك. أنت متعب جداً من الاستماع. الزنانات. الآلهة الميتة. الإمبراطورية الميتة. الأموات، الموتى، الموتى.

أيها المُقْتَنَص. أخبر نفسك. ماذا يحدث لحزن مؤجل؟

حسناً. لو كنت أعيناً، لو أنك تملك أعيناً ستفتحها في الصباح في الظهيرة في المساء، في كل فصل، مع كل حركة. ستطبق أجفانك. أعينك ستغلق. نحن مجدداً. تستمع إلى عضلتك الناعمة، تضخ. أنت عضلة تدق بنعومة. جلد. مشدود. أنت دم يتحرك. أنت، ضوء. ادخل. هذه الغرفة. انتشر. لا حاجة. لأن تمشي، هذا الضوء مسير. ودرسناه.

أنت. الجدلية.

العزير الحي،

اقترب. حين ينفذ الضوء إلى الغرفة، حيث لم يكن هنا سوى ممرات تقود الضوء. لا يوجد المزيد من العواصف. الزنانة. أجهزة المراقبة، أنت تستمع. تحوم. تحوم حولك. حول رأسك. حول بناياتك. حول ... لا أحد غيرك منتبه لهذه المادة. أنت، في المقابل، تراقب.

غير نادم،

أيها المُقْتَنَص،

من الضوء، أو بالأحرى، الشيء، الموضوع، الشيء الذي تحب والذي يتحرك حوله الضوء. انزع هذه العقبة. دع الحب، دع أحداً يدرسك. سيكون هناك دائماً إبريق في زاوية الغرفة. إنه لجمع المطر الذي يتساقط من الشق في غرفتك. إذا لم يتساقط المطر... سوف تتخيل ذلك.

أيها المطر، ستتذكر. أيها المُقْتَنَص.

أنت في لوس أنجيلوس. أنت في أوكلاند. أنت في بروكلين. أنت في شارليستون. أنت في ممفيس. أنت في بالماريس. أنت في رفح. أنت في اسميرالدا. أيها المُقْتَنَص. أنت في اجتماع. أنت في ناتشينز، في اسطنبول وكنشاسا وديكار، و....

سيمارابو.

إلى جانب السيرير حيث تنام على جهة واحدة منه. أحلام ورؤى مخيفة وليل، وليل، وليل و... ماذا لو أن عقلك الشرير الذي يدعو على ضوء هذا المساء يلغي الحواجز، يمحو الحواجز، وينكر ترتيب هذه الحواجز.

تستيقظ ويأتي دبور. سيزورك بشكل يومي لشهر. يقرصك وبعد ذلك ستختفي. سوف تُساءل عقلك، الودمات، الخدر، الرؤية، القزحية، عطارده، المعسكرات، الغرف، الزيارات، الرياضيات، الصرخات، الفرق، الاستيقاظ، التدارك، العلوم ...

تملك نافذة. إنها واسعة. هناك ثلاثة ألواح من الزجاج. مادة. اللوح الوسط هو الأوسع. حين تنظر من خلاله ستفكر سطحاً مسطحاً. نعم ستقوم بذلك.

انظر إلى الخارج.

كما ستحدس. السيارات موجودة. ليست بالعدد والكثرة كما حلمت، ولكن لا يمكن أن يلتبس عليك صوتها. هل تذكر الشبكات التي تنمو عليها النباتات، الحديد المطاوع، والطريقة التي يتحرك فيها الضوء من خلالها؟ يقوس الحداد الحديد. أنت. مطوع نحو الوجود.

اليوم تنتبه أنك بلغت أربعين سنة في شقتك بدون أي فرص عمل. تنظر برعب، تشتعل غضباً وتفكر بوضوح عن عالم، عن عوالم، عن ابدأ. هناك جزء منك لا يرغب في معرفة ذلك أبداً. الجزء الثاني، أي تلك المنطقة التي تريد أن تعرف في روحك، تعرف أن عليك أن تحكي عن العالم الذي كان، الذي يكون، العوالم التي على وشك أن تأتي.

في الحقيقة، أنت تطبع كلمات. تتساءل حول معنى أي شيء. وأحياناً ستبدو بعض الأشياء كما لو أنها حقيقة، أو الحقيقة، أو حقيقة. على سبيل المثال، أيها المُقتنص.

في الحقيقة، هذا المُقتنص. هذه اللحظة سيكون لها وقع أكبر أو أقل من زيارة دبور.

هذا الوضع ... أنت تقصد الوباء، أنت تقصد الكارثة، أنت تقصد، شعبك، يذكرك بالحرب، أو بالأحرى، بحرب. أكثر من الحرب، بالحصار. هناك كهراء في الجو. أنت تشعر بها. ينعن. تراها بالطريقة التي يمسكون بأيدي بعضهم البعض، العشاق الذين تمر عنهم. يمرون عنها؟ أيها المُقتنص. أفواههم متشابكة في هذا الموسم الذي لا ينتهي من الحنين. فمك. يقفل ويفتح.

في إحدى هذه الأمسيات الهادئة قبل أن يرتعب العالم، تشاهد طائرة وهي تطير فوق أكثر المباني علواً في مدينة الملائكة هذه. بالكاد تستطيع تمييز حركاتها. ومع ذلك، التغيرات التدريجية، الطريقة التي تسقط بها الشمس. البناءات تشتعل. أنت لا تبكي. أيها المقتنص. أنت تؤمن بالليل. أيها المقتنص. أنت تنسى أن تتذكر أشياء ...
معينة.

سحبوا جسد ريمي من ذلك النهر. لم يكونوا يعرفون بأنها هي. شكوا بالأمر. كانت هناك أجساد كثيرة. يتم سحبها وسحبها وسحبها و ...
العالم يشتعل. أيها المقتنص. العوالم تشتعل.

تشتاق إلى ذلك الأسبوع. تجلس مع كأس من الشاي بالنعنع. أنت لا تتحرك لساعات.

هناك صداً على الشرفة. أصبح على شكل خريطة الآن. المبنى مقابل الشارع الواسع، المبنى في الأمام. أربعة طوابق فقط. يقال إن قلبك يحتوي على أربع غرف. أنا وأمن بغرفة خامسة، وسادسة، وسابعة ... وكم من الطوابق ... قفزت البقرة فوق ... أيها المقتنص.

غرف. هل تصدق ذلك؟

لا تقف أشجار النخيل كما لو أنها. هذه المباني، لا تستوفي معايير البناء ضد الزلازل. على واجهة المبنى الأمامية هناك جملة بأحرف ناقصة. **THE PARK WI ONA**. هذه إشارة كافية لي حتى أتذكر حياة كرتيس فلاور الذي يعيش في فينونا، ميسيسيبي، مسافة سيارة من المكان الذي ولدت به، قضى معظم حياته في الأسر. الآن هو حر. كما على الكثيرين. قائمة غير كاملة. مومية أبو جمال، ليونارد بيلير، ريد فاون فاليس، مايكل راتلير، ماركوس، ديفيد غيلبرت، ريفرند جوي بويل، أنا بيلين مونتيس، جيريمي هاموند، ايفان فارغاس، سيمون ترينيداد، رسيل مارون شوتس، جليل مونتقم، موتولو شاكور، جميل عبد الله الأمين، فيرونزا باويرز، سوندياتي أكولي، اي بوينديكستر، رومين «سيب» فتزيغالد، كاماو صادقي، كوجو بومانى سابابو، سوشيل «سينك» ماغيي، جان كارل لامان، د. أفيبا سيديكو، د. عبد الحليم أشقر، جيرد شيز، بيل دون، ماريوس ماسون، عبد العزيز، مالك سميث، حنيف شاباز بي، أوسو بلانكو، ألفارو لونا هيراناندين، رامزي مونيز، ستيفين كيللي، فران ثومبسون، ستيف دونزيجر، جوزيف محمود دبيي، وآلاف من الآخرين، الذين ما زالوا مقيدون في السجون، في المخيمات، في البلدات، لي المدن، تحت المدن، على الحدود، في البحر...

أيها المقتنص، بلا حدود.

إذا كنت لا تعرف اسم الشارع أنت ملعون أبوك. لا أحد يستعمل أسماء هذه الشوارع الآن. في حال رأيت اسم شارع، سيكون على الأغلب مكتوباً بطريقة مغلوطة. هناك حرف واحد، أو قد يكون أكثر طوياً من المبنى نفسه.

سأعدك بأن يكون الاسم مكتوباً بطريقة صحيحة. حسناً. لا، أيها المقتنص.

تهديد الضفاف. لا، وعد الأنهر الصغيرة. لا. لن آخذ قسماً من أجل هذه الدولة. قوائماً غير كاملة.

هناك شرفة مقابل نافذتك. لن يوجد رجل يسقي النباتات في الصباح، ولكن يوجد رجل يبطن مشعرة يدخن سيجاراً ويتشمس لساعات. سينظر نحوك، عبر شارع فينونا، ويبتسم.

بعد ذلك، ستجلس امرأة ترتدي رداء ليلكياً إلى جانبه. ستمضي الساعات. لن يتحدثوا. ستستخدم ملعقتها كي تهشم البيضة. بعض الصفار سيندلق دائماً على القشرة إلى أصابعها. ستزرم شفيتها. ستميل رأسها للخلف. ستعض أعينها. وستمص الصفار من البيضة.

قشرة.

لأننا لا نزال نتذكر، ما زال الوقت صباحاً.

في ذاكرته عنها، في بلده، إنها في الخارج في قن الدجاج، تنظر عبر السلك الشائك الذي يحد القن. تراقب الديوك. إنها تنتظر. داخل القن عتمة ودفء. قرقرة ناعمة. رائحة القش حيث ترقد بيوض الدجاجات تذكرها بالسنة التي ذهبوا فيها إلى الغابة. جولة من القش. الحصاد في الجو. لا بد أنها كانت في الخامسة أو السادسة أو السابعة. لم تكن تملك... إنها تجلس في الخلف. الطريق تصبح فجأة معتمة. إنها تجلس فوق القش. الأطفال من حولها يقرقرون ويأكلون الحلويات. في القن، تدفع إحدى الدجاجات برأسها عبر السلك الشائك. لتنقر على إصبعها. في ذلك متعة فائقة. تدفع برأس الدجاجة إلى الداخل نحو أمان القن. تغطي البيض بالقش. على الشرفة، عبر الشارع، الرجل بالبطن المشعرة يسعل ويسعل. الدخان يتصاعد من حلقه. في هذا الحلم، يعبر موكب من السود على دراجاتهم النارية ويهللون على صوت **A Call for All Demons**. إنهم أيضاً يسوقون إلى جانب العربية. أطفال على القش. أيها المقتنص.

في الكابوس الحي، الكابوس الذي لا تخترعه أنت. فوق شارعك. ترقص طيارتان هيلوكوبتر في السماء عالياً فوق شقتك. في الأسفل يعلن الجوعى والموتى والمفكرين والمؤمنون والحشود المتحركة عن عوالم جديدة. من خلال نافذتي، تتحرك الطائرة من لوح الزجاج الأوسط، نحو الأول، ثم تندفع نحو الثالث.

تنظر من خلال النافذة.

يدوران حول بعضهما البعض مثل نجوم ثنائية. مأخوذان. الدولة تقوم بعملية مسح للطبيعة، للجمال، للوحيدين. نحن نمنع عن الدولة أحلامنا. لا. تجيء لك هذه الكلمات بنعومة في ضوء المساء الذي يبقى. أحياناً لأيام كاملة ولثوانٍ وللاأبد.

خلايا جديدة. بنى جديدة. عناقيد. مدارات من الناس. طارئ، أنظمة ضعيفة. الأبواب في كل مكان تتساقط من الأفواه، بالإشارة، في الحواشي، في الدفاتر، في الأغاني، بحركات الورك، الآخرين الذين تتذكرهم، أو نتصورهم. نقطع ونرقص الطرق التي قطعها السود. الجديد القديم. رحلة العلاج هذه ليست جديدة، حتى لو أنك تجد هذه الطفرات الآن على الأحياء. أيها المقتنص. أنت حي.

يرن الهاتف. إنها أمك. تعرضت مجدداً لنوبة قلبية أو لنوبة في القلب. أيها المقتنص. ما الفرق؟ إنها في بلادك السابقة. هناك حيث كبرت. بعيدة مئات الأميال. تقول عليك أن تحاول. من الممكن أن لا تعيش. إنها غير متأكدة من العيش. أيها المقتنص. هكذا. وما الذي تفعله على أي حال؟ تخبر أمك. أحلام. أمك تسخر. أيها المقتنص. أنت تحاول أن تثير انتباهها. أنت نجوم. أنت، وهي تتبادلون سحب وتشكيل هذا الفضاء ما بين بين ... أمك لا تؤمن بالشق. على أي حال، قوة جاذبيتها أعلى منك. إنها تخون كل قوانين الكون. تتهمها بأنها خط مستقيم. يمتد إلى أين؟ ترد عليك. أنت؟ تضحك. كاثرين، الفتاة الميتة، الفتاة بينكما، لم تكن ستضحك بهذه الطريقة. تعرف ذلك، وتضحك، أيضاً. المشكلة كاملة.

على الأرض. تتذكر. غرفة المعيشة واسعة جداً. تحتل النافذة مساحة جدار كامل من الشقة. النافذة حدث مثل أي شيء آخر. تهبط على القمر. تشعل ناراً. تخرج الطعام من الفرن وتجلس للعشاء. في البداية تلتهم كل شيء حولك. بعد ذلك تحمل الشوكة. أطراف الفطر الهشة، والملح، والزبدة، لذيذة جداً. تتذوق هذه اللحم على لسانك. وها أنت مجدداً، مع نفسك، أيها المقتنص. تلتهم وملتهم.

إن فانتازيا الشمال، فانتازيا الغرب، فانتازيا السهول والأراضي، والجزر وسلاسل الجبال والأراضي الموعودة، تجلس الآن ساكنة، مقتنصة من قبل تنظيم هذه الفانتازيا. يقابل الكثير من الهجرات إرث من الخسارة، والثورات. وجميعهم يزرعون تحت ثقل استحالة الحكم ككل، كنسيان، كخواء، كسطح، كسوء فهم. أشكال من الوجود ممددة أمامنا، مرئية، منطوقة، للجميع، بغض النظر عن منطوق هذه الحدود.

البارحة، تتحدث إلى جدتك. إنها وحيدة مثلك تماماً وتعتني بالأشياء وممتلئة بالضحك. تنسج من القطن حماية. أقنعة للعائلة السوداء، تقول، وهي تنسج وتنسج و... أنظمة من الأنفاس. هذا اللباس، تقول. إنها لا تتلقى اتصالات كافية من أحفادها كافة تقول لك دون أن تستخدم هذه الكلمات. سنبقى. لا يوجد اتهام في نبرتها. من العجب، تقول، إن أياً منا لا زال هنا على الإطلاق. أيها المقتنص. لا تتعجب، تقول، إن الموت يزرع خلف أعينهم جميعاً. أيها المقتنص. من العجب، تقول، إن العصافير تعود للغناء مرة أخرى وبسرعة، وبصوت عال، وبجمال، بعد الهزات الأرضية، العواصف، الفيضانات، الحرائق، الحروب، الحصار، الإبادة الجماعية، الآلهة، الكنائس، السياسية، الرعب، كل هذه العصافير، تغني آلاف وآلاف الأغاني للأحياء. من العجب.

ماذا وجدت وسط الكارثة

رشا حلوة

في بحثي المستمر، الرسمي وغير الرسمي، ذلك الذي أخصص له مساحة مباشرة في كتاباتي وعملي الصحفي، أو بين السطور، عن كيف تحملنا الكوارث؛ تلك السياسية والاجتماعية وحتى الشخصية إلى طرق بإمكاننا أحياناً، بعد سنوات أو أشهر أو أيام، أن نرى شيئاً مضيئاً فيها، أو ليس بالضرورة أن يكون مضيئاً، لكن على الأقل أن نلمس فيها معنى ما، أي معنى - في بحثي هذا، التقى بغرباء، أصدقاء وعائلة، أكتب من حواراتي معهم/ن القليل على ورق، أقصد اللاب توب، وأكثر أحملها معرفة وحكمة للحياة، أحياناً لأشاركها مع أحد.

اليوم، وأنا أنظر إلى سنوات من الكتابة، حفرت -وما زلت- في تاريخ عائلي وبلدي وناسي في فلسطين، تحدثت إلى صديقات وأصدقاء فُرض عليهم/ن مغادرة أوطانهم/ن، في سوريا أو مصر أو تونس أو إيران، التقيتهم/ن افتراضياً أو حقيقة في برلين، البلد الذي قررت الاستقرار فيه بعد فلسطين. عرفت قصصاً لم أكن لأعرف بوجودها لو لم تحدث هذه اللقاءات، التي كانت للصدفة مساحة فيها أيضاً. وفي جميعهم، وفي وسط الحزن والكارثة التي تحملها القصص، كان معنى ما، حسب الرواة، وكان المعنى هو ما يضيء. وليس في قصتي هذه أي «كليشيه».

انتقلت من عكا وحيفا إلى برلين العام 2017، في بحثٍ عن بيت يشبه ذلك الذي يعيش في عالمي الموازي، حيث سهولة الوصول إلى قصص، وما يصدر عن الكوارث من حُكم، خارج الحيز الجغرافي الذي يسيطر عليه الاستعمار الإسرائيلي. لم أكن أتخيل أن بعد ثلاث سنوات بالضبط، أن غرفتي في برلين بإمكانها أن تكون غرفة في أي مكان بالعالم، حيث كل التواصل مع الخارج يحدث عبر شاشة الهاتف واللابتوب، مع القريبات/ين والبعيدات/ين. كانت بداية الجائحة وما فرضتها الدول من قيود، كعقاب إلهي لمن هن مثلي، يعشن خارج بيوتهن أكثر من داخلها، فالبيوت بإمكانها أن تكون الناس والحدائق وباراً نحبه وحواراً مع صديق أو قبلة بجانب النهر. والبيوت، أي

تلك التي مع باب وشبابيك وسقف وجدران، هي للنوم، وبخاصة لمن يعيش وحدهن.

بعد مرور شهر واحد على الحجر الصحي في برلين، انتقلت من بيت مع شركاء إلى بيت لي وحدي. لَمَح بعض الأصدقاء أن توقيتني للانتقال للسكن وحدي «غريب بعض الشيء»، وبخاصة أنني وحدي فعلاً، لا من حبيب أو عاشق وزيارات الصديقات والأصدقاء ممنوعة داخل البيوت. ومن لَمَح بالاستغراب، يعرفني. لكنني، نظرت إلى «العقاب الإلهي» وقبلت التحدي! مع قبول تحدي العزلة المدموجة بين المفروضة والاختيارية، كنت أصلي سراً. عرفت - كما جميعنا - حتى لو أنكرنا، أن العالم لن يكون على ما كان عليه ما قبل كورونا. بدأت باختبار مشاعر ومخاوف، أعرف أنها موجودة، لكن ليس على جسدي ونفسي. لأسباب عديدة، كانت تجربة معاشة أولى. وداخلي، كنت أتمنى، بصمت، كصلاة سرية غير مكتوبة على جدران فيسبوك، وستوريز الإنستغرام، أن تأتي كارثة العالم الجديدة هذه، بثمار طيبة وحنونة على قلبي، ولو ثمرة واحدة فقط.

لم يمر وقت طويل حتى استجيبت صلواتي. فجاءت الاستجابة بعودة حبيب قديم إلى حياتي! (لو كنت أصلي كل يوم، قلت).

المهم، عاد الحبيب إلى حياتي. بفضل كورونا والصمت والعزلة، ومساحات التفكير التي يمنحها الملل والأسئلة العميقة عندما تتوقف المدن عن عملها اليومي في جعلنا نخاف أن نخسر شيئاً ما خارج البيت. فعبّرنا - أنا والحبيب - عن أشواقنا وأحلامنا، وتحدثنا عن كيف أصبح كل ما هو خارج المنزل غير مضمون. وأسئلة كالتالي: ما هي المدن؟ ولماذا نهاجر؟ وأين بيوتنا؟ وما هو البيت أصلاً؟ وعن الروائح والأكل والكثير من الموسيقى. وهل تريدان عائلة؟ وهل تريد أن تصبح أباً؟ وأنا غريبة يا حبيبي. مع الكوارث أريد أن أصبح أماً أكثر. وهوب! انتهى الحجر الصحي.

حجزت بطاقة قطار، عندها، لم تكن قد عادت القطارات المباشرة بعد (بسبب الحجر الصحي)، فكان عليّ أن أحجز تذكرة سفر لقطارات عديدة

وأغبر ثلاث محطات. لم أتدمر، ليس فقط لأنني ذاهبة للقاء حبيبي، لكن لأن السفر بعد الحجر الصحي، أياً كان، هو نعمة!

وأنا، أحب السفر في القطارات لأن الشبايك مفتوحة على الطبيعة والخيال، والكراسي مريحة (نوعاً ما)، وهذا مفيد للخيال أيضاً، وبإمكاني أن أكتب على دفتر أو لابتوب، وفي معظم القطارات فيها إنترنت، وبإمكاني أن أقرأ وأنا م... لكنني لم أفعل أياً منها في ذلك اليوم. منذ لحظة خروج القطار من برلين مروراً بكل المحطات، وقبل أن أصل إلى المحطة المركزية في أمستردام، أردت فقط أن أصل وأراه. ولم أكن خائفة.

وصلت في ساعة متأخرة من الليل، ومنذ أن التقينا من جديد، عرفنا إلى أين نحن ذاهبان. والله. كان الطريق الذي رأيناه هو اليقين الوحيد في وسط عالم كامل (من ضمنه نحن) يرتجل طرق إنقاذ من كورونا.

وفي وسط كل هذا، قررنا تأسيس عائلة وأن نبني بيتاً، ونريد أطفالاً بالطبع، وتحديثنا عن أثاث الغرف، وكذلك قررنا أن نتزوج، ولم نكذب خبراً، فتزوجنا! وانتقلنا للسكن في بيتنا سوية في أمستردام بالقرب من النهر (كل المدينة فيها أنهر يعني)، ولأخفف حزني على ابتعادي عن برلين، وأسباب عديدة أخرى، أقول لنفسني: «أنا من مدينة جميلة كعكا، وأستحق أن أعيش في مدينة جميلة كأمستردام». للأمانة، النهر ليس البحر الأبيض المتوسط، لكن وجود سمك طازج في مدينة أوروبية هو أمر مغرٍ لا يُقارن بسمك عكا، لكنه سبب مهم لأن تقع في حب مدينة وتقرر أن تبني بيتاً فيها.

في بحثي المستمر عن معنى الكوارث، كنت أبحث عن بيوت وأنا أترك من خلفي بيوتاً أخرى، تلك التي سأعود إليها، وتلك التي لا يمكن لي العودة إليها، وتلك التي لا أريد العودة إليها أصلاً. من ضمن هذه الأقسام، أكثر ما يخيفني عندما تتحكم الكوارث في طرقنا. تضيف حواجز أكثر على ما هو موجود، وأقساها -ربما- تلك الحواجز التي بُنيت لأسباب غير مرئية، مع أنها في الأول والآخر، من صنع الإنسان.

كأن الكارثة التي لا تراها العين المجردة اليوم، تُحضر إلى حيواتنا كل الكوارث الموروثة أو التي لا لم نعشها مباشرة، من قصص جدتي في فلسطين عن تهجيرها من قريتها، مروراً بقصة حبيبي الهارب وأمّه طفلاً عبر جبال إيران من بطش نظام ديكتاتوري، إلى قصص أصدقائي الذين يشتاقون للمكدوس من أيادي أمهاتهم في دمشق وغيرها... كورونا، هو تجسيد غير مرئي لكوارث نعرفها، وتلك التي لم نسمع عنها بعد، واليوم، على الأقل أنا وكثيرون أحبهم نعيش أبعادها وأثرها وأسئلتها ومخاوفها في أماكن عديدة من العالم.

لكن، في بحثي المستمر عن المعنى في الكوارث، الماضية التي نعيشها اليوم، وفي وسط الكوارث أيضاً، وجدت الحب صافياً، حاضراً، بيتاً طيباً وحنوناً، ولا يخيفه شيء. وهذا ليس «كليشياً».

ش

ثلاثة قصائد



أسماء عزايزة

أشياء نائمة

انظري إليّ يا أمي
فقد عدتّ بمزيد من اللحم
والعظام والحكمة

صرت أفكر بالموت وأنا م دون ههدة
وأسنان اللبن صارت تطحن الخسارات طحناً

عدتُ فوجدتُ ألسنة التهايل بتراء
أطفالاً يجعرون من كل زاوية
صوت المؤذن مكتوماً بيد غريبة

العودة شاشة سينما
وأنا لم أعد أميّز تلك البطلة
دخلتُ مرّةً وعبثتُ بالسيناريو آلاف المرّات

العودة قطة أكلتُ صغارها

العودة ضفيري التي قصصتها ورميتها في أفواه الزمن

صارت الحاكورة الخضراء امرأة تخاف الهرم
والبئر صارت سريراً في مشفى
والقطط أرواح النساء اللاتي شهقن فوق زندي
وصرتُ أمك

أغطي جسدي بجسدي
من رصاصة الغفلة
التي ستُملت من سنينك السبعين

اللكنةُ التي ركبتهَا ناخْت تحت التراب
 أين رحلتُ القافُ المَشَاءُ
 وأين الكافُ التي لم تَبْرَح العتية
 أين المقلاعُ والعصفورُ وابن الجيران؟
 ماذا كان اسمه؟

وماذا
 كان اسمي؟

لو كان لاسمي اسمٌ واحدٌ ما كنتُ لأنساه
 كان سيسقطُ فوق رأسي مباشرةً
 كرمية قنّاصٍ محترفٍ

أين الجواعدُ التي يبَسْتها بملح الحياة
 أين مونةُ الحرب التي لم تأتِ
 فأكلها الانتظارُ والسوس
 أين البابُ الشماليُّ المفتوحُ على الضح؟

أين عمّي محمود الذي أكل العشب
 واستغفر الله ذنبَ البشريّة؟

أبي العجوزُ الذي صار ابني مات
 لكن أين أبي الشّاب الذي كان أبي؟
 أين الجسدُ الذي كنتُ أتسلّقه وأقطفُ من جبينه ثمار التاريخ الحامضة؟

قولي له تعفّنتُ دروس السياسة في رأسي
 واستبدلتُها بقصائد لا أفهمها
 قصدتُ تكحيلها فأعميتها

رفعتُ أمي سبّابتها فوق شفّتها
 أومأت لي بأن أخرس
 وأشارتُ إلى أكوامٍ من الأشياء النائمة.

أنا كلمةٌ واحدة

انظريا أبي
اللغة سريراً باذخ
وأنا سحلت من فرج الحياة فوق مصطبةٍ قديمة
فبأي لغةٍ أكتب رثاءك

اثنى عشر سنةً وقفت الخنساء عند بؤابة المدرسة
رطنت خلفها بكلماتٍ مثل بيغاء مبتورة اللسان
وكانت كلما جادت عيناها بالدموع
تمشي كأناتٍ بجلود يابسة في صحراء عيني
كلما نمت شجرة التوت نحرتها أمي
لئلا يفلق جذرها السور
أي لغةٍ ستفلق حزني عليك

قطفت الكلمات من ذاكرة الشجرة عن قوامها الغائب
حرثت أرض اللغة من خيال المرح عن امتداده الغائب
لقنتني القطط مراثيها عن الأجنة التي لم تتكون في أرحامها
ربطني الموت عند بؤابة المدرسة وطالب بحصته
أنا كلمة واحدة
تقفز فوق لسانه القصير

أنا كلمة واحدة لا أتبينها

سألُفظُ وأنتهي لكن ماذا أكون؟

لو كان الرثاء مواءً أو ثغاءً لكنته
لكنتُ حرف نداء طويل يستدرج أبي
أو أداة استفهام تدلني عليه
أنا اسمٌ واحدٌ ظلّ في بطن الله
ونسي أن يعلمه لآدم
أنبئوني بأسماءٍ أخرى حتى أنطق بغيره
انظريا أبي
اللغة سريراً باذخ
تنام الخنساء فوقه مثل كون نضر

بينما أقف عند زاويته
حيّاً مهجوراً
يصفرّ في الصمت
وتعبر جسدي
على رؤوس أصابعها
المراثيات.

حوض من البصل الأخضر

انظري يا قطني إلى جمرتي الكايبة
كلّما أدرتُ ظهري عمّرها الوقت بأكمّه الكبيرة

وأنا مثلك في هذه العتمة
اتّسعت حدقتي
وكُتم موائي في صدر دُميمةٍ قديمة
الحدقة التي ذرعها رخالةٌ قدامى لم يسمعوا يوماً بفكرة الوصول
التي من سككٍ ومدنٍ وصفاراتٍ وذهاب
كانت فضفاضةً مثل مرجٍ فقد أباه الأفق
وأخذ يترامى دون نهاية
ركبتُ ظهور رياحه الشقيّة
لفقتُ قصصاً بوليسيّةً لحياتي
تقمّصت أربعين بدناً وخرجت من خمسين
تزوّجت مرتين
كدتُ أموتُ آلاف المرات في نومي
لولا أنّ فزاعة الوحدة خرمتُ هدأة الليل

وشمتُ لوحاً كنعانياً على ظهري
ورحتُ أقنعُ الناس بأنّ عمري 4 آلاف سنة
شيدتُ بيوتاً فوق تلالٍ لا أعرفها
سكنتُ فيها ثمّ سوّيتها بالأرض
ثمّ شيدتُ غيرها

رُميتُ رجلاً واستملتُ غيرهم
حسبتُ أنّي قُتلتُ لكن ظلّ نفسي يهرب إلى صدري
طردتُ الحبّ بأدبٍ فدخل من الشباك

ذبحتُ الأطفال الذين تهيأوا لي كي أنجو من زنازين الأمومة
وكانت الأمومة تتفرّج من بعيد وتنتشي
أخفيتُ بندقيّة أبي على أمل أن تحكّمنا الغزلاً
لكنّها سلّخت في مطبخنا
ثمّ صار شعب الله المختار يختار رؤوسنا واحداً واحداً
ويجرّنا إلى المسلخ الكبير الذي أسميناه الحرّية
جلدي مرّقط بالندم والبهجة
في كلّ مرّة بدّلته بثوب متجانس مرّفته أظافر السّخرية
ومشيّت عارية

التقيتُ بشعراء ظننتُ معهم أنّ القيامة قامت
وأنّ الله اصطفانا وحدنا لنعيش
هجرتُ رجالاً جعلتهم يظنون أنّهم أوغاد
وأنّهم لا يستحقّون الحبّ إلا ليندبوا حظوظهم عند بواباته العالية

وها أنا
بعد كلّ هذا يا قطني المرّقطة
أموء بصوتي الأخرس عند بؤابة بيتنا الصغيرة
يفتح لي الماضي الجميل
أمشي في الفناء الخلفي وأبحث عن ذيل السمكة التي أكلتها قبل ثلاثين سنة

ماتت شجرة الرّمان
وعاش ظلّها
حدقتي تتّسع في سواده
أحبو فوق السّور
وأطلّ على حوض من البصل الأخضر
يدُ أمّي تعشّبه
ويدُ أبي مقبورة فيه .

أربع قصائد

طارق العربي

استشهد لما انتبه أن ساقيه سبقته إلى المقبرة!

في الجامعة حاولت أن أكون عضواً في التنظيم ومحياً بجيد إلقاء النكات وفشلت بعد مظاهرة طلابية أخبرونا فيها أن الطائرات المصرية تغير على حيفا

المتحدث حينها كان من حركة فتح،
يومها سقط عشرة شهداء على حاجز حوارة جنوب نابلس
كنت أركض معهم خلف شاحنة مرسيدس 608 حمراء اللون،
استدارت بعد أن وصلت بالمتظاهرين إلى الحاجز.
في المركز الثقافي الفرنسي، وبعد حديث طويل عن المخبرات
وسلوك الثوار في الشارع، وبينما كان مساء المدينة يرسم صورتها
على مدخل المخيم، قصفت الأباتشي سيارة تقل ثلاثة مقاتلين
من الجبهة الشعبية وفتح. استشهد اثنان، بينما المقاتل الثالث
الذي أنقذ على عجل من سيارة السبارو وكان يصرخ أنه حي،
استشهد لما انتبه أن ساقيه سبقته إلى المقبرة.
دفنت أصدقاء بيدي تلك الأيام، وكانت الزنازين مفتوحة والمقابر أيضاً
وكانت الأشياء تتداخل في بعضها لتأخذ لونا واحداً،
حتى ظننا أن الشمس وقتها ستشرق من الغرب.

ثلاثة كتب في علم الاجتماع السياسي

امرأة تجلس في البيت بعد أن أنهت دوامها الجامعي، بين الكتب وأوراق
الامتحانات، ولا تفكر في الذهاب إلى أي مكان.
رجل يجلس بعد العصر في المقهى وحده، معه هاتفه النقال وأرقام أصدقائه
ولا يفكر بالاتصال بأحد أو الذهاب إلى أي مكان.
لا توجد هنا امرأة تقف عند النافذة وتلوح لرجال عائدين، لا توجد نافذة أيضاً.
لا يوجد هنا رجل يفكر بإلقاء نفسه في البحر، لا يوجد بحر.
ولا يوجد سيناريو آخر مثل:
أن يجتمع الرجل بالمرأة العائدة من عملها ومعها ثلاثة كتب في علم الاجتماع

السياسي .
المرأة العائدة من عملها ومعها ثلاثة كتب في علم الاجتماع السياسي ستظل
على شحوبها
الرجل الجالس في المقهى سيظل الرجل الجالس في المقهى ولو لم تكن طرق
هذه المدينة مألؤ بالنساء الوحيدات والرجال الهارين لحدث شيء آخر ،
مثل أن يجلس الرجل والمرأة في غرفة واحدة .

رجل يتحدث مع نفسه

اليوم مثلاً كان العشب مبتلاً والكلاب لم تغادر باتجاه جحورها بعد
ومطر فبراير كان يدفع بالشتاء نحو التلال وكنت أفكر فيك
وفي الحقيقة مضى وقت طويل وأنا لا أفعل شيئاً غير ذلك
أصدر عمرو دياب خمسة ألبومات على الأقل وأصدر صديقي ثلاثة كتب
تبعها مؤخراً برواية ، ومرت مواسم كثيرة خسرانة ، وهاجر الناس
وما زلت أفكر أنك حقيقية مثل الله
وأنه باستطاعتي التأكيد لك أن الإيمان
هو قدرة شخصين الادعاء أن أشياء كثيرة حدثت بينهما في الزمن الماضي
بينما ليس هناك من ماضٍ بينهما ولا زمن ولا شيء ، فقط هناك شخصان
واحد يتمشى برفقة الآخر ويظن أنهما متفاهمان ،
يظن أنهما يستطيعان مواصلة المشي ومواصلة حديث من الصعب أن ينتهي
قبل إفراغه من الأكاذيب !

شخص واحد كان يتمشى عبر الحقول في الصباح ويتحدث مع نفسه
داخل الزمن أو في الجحر وهو الكلب !

رجل وحيد يتجول في السيارة

رجل وحيد يتجول في المدينة في سيارة نيسان ميكرا
ثم يعود إلى البيت ويمسك في كل كف سمكة وخبزاً
وما أن يدخل من الباب حتى ينادي ابنه .
لا حاجة به إلى الحديث أو السفر
أقول شيء عن سور الحديقة والسرو والغياب .
داخل السور يجلس العاطلون عن العمل
وتحت السرو عميقة الخضرة يجلس هو وابنه
وبينما يعده أن يتعلم من جديد وأن يعلمه سياقة السيارة
يطل عليهما جنود روس وأثيوبيون
وامرأة خائفة تطلب إليه بالحاح العودة إلى البيت
بقائمة المشتريات وإغلاق الباب .

رجل وحيد يتجول في السيارة، ويبحث عن شيء ضائع منه
ومن رثته يخرج دخان العالم، يبحث عن شيء ضائع منه!

جاكيت جوخ

مع الوقت تعلمت ألا أطلب شيئاً لنفسى، مع الوقت تعلمت الصمت.
حين أريد الحديث مع أحد أذهب وأتحدث مع شجرة خروب.
تحت الشجرة دائماً يجلس أربعة أبناء وأبيهم، يتناولون طعام الإفطار.
أحد الأبناء استشهد وهو على النافذة في المخيم.
من يومها، منذ صاروا ثلاثة وأبيهم جالسين تحت الشجرة، وأنا أفهم الكتابة
في أن أقول الصمت
ألّمي كبير، مثل ألم من فقد وليده. ألّمي صغير، أصغر من أن أقوله.
أختي اشترت لي جاكيت جوخ أول من أمس، وكتبت هذا لأنه صار يجب أن
أناديك
وأقول شيئاً، فمن يقوى على احتمال الصمت بعد كل ذلك؟

خطبة

ديان إكزافيير

دعني أخبرك عن أمي .

لقد كانت جماً لأعين بأسنان بجلد بأيد لتقطع اللحم، أيد لتعد الفواتير، أيد لتقود السيارة، أيد لتحمل الطفل، بأقدام مع أظافرٍ مطليّةٍ بالأحمر مبرودةٍ بأثناء بصبغة غامقة سوداء، وخصل فاتحة تغطي شعراً أكثر بياضاً من شعاع من الضوء يرتد من بحر موطنها في الظهر بضحكة عالية، مثل تي زوازو تصرخ بأجنحتها خارجة من أسفل حلقها بقم نرف نبوءات، فم حذر، فم لعن النيكس مع بداية كل موسم من كرة السلة، بشفاه رطبة من الاعتناء بكل شيء، شفاه جافة من خيبة الأمل، شفاه حمراء على وجه تغطيه مساحيق التجميل، لأنه من المهم أن تبدو دائماً جميلاً، أن تملك ذوقاً، لهذا تبدو دائماً أصغر من عمرها ببطنة من تعرف دائماً أين تجد الخصومات على مكونات اللازانيا في الأسواق، مع قدم تخبط أرفصة فلاتبوش بقوة، مع صبر الكثير من الأمهات، مع غضب الكثير من النساء، مع فضول الكثير من الأطفال، مع كرم الكثير من الأصدقاء، مع ثلاث بنات لا يعرفن ماذا يفعلن بكل هؤلاء الناس الذين تركتهم وراءها، بنات لسن بعد قديسات، بنات لن يصبحن أبداً قديسات، لأنها ربتهن ليكن سمكات يسبحن سوية بقداسة، لأنهن قبل أن يولدن نمّن بقرب الله في تيار من الدماء، وتبعات هذه الرياضيات الأبدية .

بينما كانت أمي تموت كنت أراقب جسدها وهو يتحول إلى جثة أخيها، صغيرة ويغطيها شعر أبيض، ومنكمشة أسفل الأغطية. لاحظت بعد ذلك جسد خالتي المريض يتحول إلى جسد أمي المحتضرة. لا يغطيها سوى شعيرات بيضاء قليلة، الجلد مختفٍ أسفل الأغطية. لقد أخذها بتر قدمين ووباء عالمي حتى يكتمل التحول. لم تسنح لي الفرصة أن أشاهد حالة أخرى تتحول إلى إحدى خواتها. ذنوب هذه الإمبراطورية أبقنتنا بعيدين عن بعضنا البعض، منعزلين كل في مكان. تفرجنا على جنازتها من خلف البوابة، من خلف الأقنعة .

أسفل القدم المتعفنة لدولة تموت بسرعة وبدون سرعة كافية .

أطراف تنبعث منها رائحة الحديد، منزلقة، لزجة، زهرية. الأعضاء التي تحارب نفسها تحاربك. الأعضاء التي تعيثُ فساداً لا تسمع. لقد كان الكبد عدو أمي الوحيد، ثار ضدها كما لو أنه مدفوع من قبل إحدى تلك الطعنات التي حاربتها في أحلامها. حب أمي الأول ساعدها في تحويل رثتها إلى أعداء. لقد أخذ ما يقرب حياة ابنتين حتى الآن للوصول إلى شيء يشبه المسامحة. أرى ست أخوات يتغلغلن في بعضهن البعض: أجساد تتقاتل، أجساد تخسر، أجساد ترتاح. ابنة خالتي، التي كانت دائماً أختي، كبرت لتصبح أختي. أخواتي يصبحن أنا. أجسادنا ليست جاهزة بعد لترتاح، لتسمع. معاً، نتحول إلى أمهاتنا: نبقى على الهاتف لفترة طويلة، نضحك بقدر ما يمكن، نعقد الصفقات حينما نحتاج. أنام على الكنبه وأنا أشاهد كرة السلة، لسانتي يتحسس الشق بين أسناني الأمامية، بيت المرأة التي أنجبتني. أجعل من نفسي أمهاتي. أجعل

من أخواتي

أجعل

أخواتي

نساء

لا يرتحن

أنا

أولاً

أقابل العنف

أقابل الإمبراطورية

دائماً بشكل طارئ

هذه العناية

أنا سوداء

عين غير كاملة

هوة

الأخوات هن فقط أخوات في غياب الأمهات. غير ذلك، هن فقط بنات. كل البنات في عائلتي ينهين على الابنة ليصبحن نساء. إننا مجبرات. حين ترحل الأم ويكبرن الأخوات يصبحن نساء ستكشف لهن أجسادهن الموت قريباً. حين ترحل الأم والأخوات لا زلن صغيرات، يبقين فتيات صغيرات للأبد، وهن يبحثن عما يكشفه الموت. الأخوات أمهات لبعضهن البعض

أحياناً، الأخوات أمهات لبعضهن البعض أحياناً، يراقبن أجسادهن يتحولن إلى أسلافهن.

الأمم، في غيابها، يصبح أجزاء. ينحفر كل جزء منها عميقاً في أحد أجساد بناتها. السؤال الأكبر: هو أي من أجزائها سيحل في جسد من؟ القلب في دماغ من؟ الكبد في يد من؟

لا تتوقف المدن الآن حين يموت أحد. في الماضي كانت أكثر مراعاة: موكب الجنائز وهو ينحدر شارع أوشين وينعطف نحو بيفرلي.

أظن أن المدن لا تتوقف حين تمشي باتجاه الحب، أيضاً.

لم أعد امرأة من أجل أن أحمل حبي. توقف حبي عن أن يكون رجلاً من أجل أن يصبح حارس حديقة أمي. السبت يخفف من الشك حين أرفع وجهي مقابل هذه الأوراق غامقة الخضرة التي تكبر أكثر من الهالة حول قشرة رأسي. حارس الحديقة الآن هو أخو أختي. هناك حارس آخر للحديقة ويحدث أنه أخي. كل منا يأخذ مكانه على المقاعد في الكنيسة. أخواتي وأنا سمحنا لمخلوقات أخرى بالدخول للمنزل، وربما حينها يمكن للكنيسة أن تحترق بالكامل. أدخل، أدخل: قطعة، حمار، خروف، غراب، ديك، حمامة، أفعى، بقرة، حوت. يدخلون زحفاً فوق الجمرات الأخيرات للكنيسة، الأطراف تتحول إلى رماد، يتوهجون بينما هم يختفون للأبد.

أنا لست بقديسة .
 أنا لست بقديسة .
 فلتنهار كل البلاد .
 أنا لست بقديسة .
 قلت لا مزيد من البلاد . المدينة ميتة .
 أطرافي المكسورة تلتقي .
 العظام تعود إلى مكانها .
 البقايا تتبادل مواقعها .

فلتلتقي الأشكال
 من أجل فهم
 أنظمة
 في تعقيدها .
 فليستمر التغيير .

الهاكورة

ربيع عيد

عُدت هذا الأسبوع لزيارة الأهل. وأقول «عُدت» وليس «ذهبت»، مثلما أقول عادة «راجع ع البلد نهاية الأسبوع...»، أو في أن يسألونني «وينتا مروّح؟»، مع أنني لم أعد أسكن في بيتنا في قرية عيلبون، إذ سكنت آخر عشر سنوات وأكثر في مدينة حيفا وخارج البلاد أيضاً. إلا أن المنزل الذي ولدنا وتربيننا فيه يبقى المكان الذي نظلّ نعود إليه ونشعر تجاهه بالمنزل الأول والمنزلة الأولى. ومن مكونات ومكونات هذه المنزلة الأولى إلى جانب العائلة والذكريات والطمأنينة، هناك الهاكورة.

أعتبر نفسي محظوظاً كوني من جيل عايش الحواكير ولعب فيها. لعل كلمة هاكورة سيتضاءل استعمالها بشكل أكبر في العقد القادم، وقد تنحسر تماماً. هاكورة؛ أرض تُحبس لزراع الأشجار قرب المنازل. هي أكبر من حديقة وأصغر من بستان. ميزة شكّلت مفهوم ومعالم القرى في بلادنا والعالم. فلا قرية من دون حواكير. هي رئة المنزل والعائلة ومصدر زرعها البسيط متعاقب المواسم. هي ملعب الطفولة وساحة الخيال الأولى نحو العالم الكبير.

أولى ذكرياتي فيها، كانت سنة الثلجة في فلسطين العام 1992. أذكر منها ومضات مصوّرة سريعة لمنحدر صغير من التراب غطّته الثلوج «تسحسلنا» عليه مراراً ساعات طويلة ضاحكين أنا وأبناء العم وأولاد الحارة. كبرنا قليلاً بعد سنة الثلجة، وأصبحت الهاكورة وما حولها ملعبنا وعالمنا اليومي الذي يبدأ مع ساعات الصباح حتى مغيب الشمس، حيث نعود إلى المنزل متّسخي الثياب. فيها اكتشفنا لعبة كرة القدم، والغميضة، والزقيطة، ومفاقسة البيض وجيله في عيد الفصح، وفيها حفرنا بألعابنا طرقات جديدة. هي الفضاء العام لأطفال الحارة. الخروج الأول عن سلطة العائلة. مساحة جغرافية صغيرة لكنّها عالمٌ كبير. وقتٌ طويلٌ من اللهويمر كأنه دقائق. هي المكان الذي لا وقت فيه للوقت. هي بحثنا الأول عن الحقيقة والسرديات الكبرى. هي قصيدتنا الأولى وقصصنا التي لم تُكتب. هي تذوقنا لطعم الحرية وشكل التمرد.

تحدّ حاكورتنا سلسلة طويلة من شجيرات السّريس لتُشكّل عالماً داخلياً آخر في الحاكورة مغطّى وغير مكشوف. هذا كان الأندر جراوند الخاص بالحاكورة. هناك كانت تلد القطط أولادها، وهناك كنّا نتلقى تحذيرات من الدخول لأنه من المحتمل وجود ثعبان ما، الذي اعتقدنا بأنه الشيطان الذي يلحس طعامنا في حال وقع أرضاً فيفسده. رغم ذلك، كنت خبيراً في دخول السّريس من أول السلسلة حتى آخرها. وبسبب هذه الخبرة والسرعة في الدخول والخروج حتى وإن كنت حافي القدمين، رُشّحتُ للشخص المسؤول عن جلب كرة القدم حينما تدخل السّريس بعد ضربة متهوّرة، وحصلت بسبب ذلك حينها على لقب «أبو السّريس» بكل فخر. كان دخول السّريس مغامرة تحاكي خيالي عن فتى الأدغال الذي يعيش في الطبيعة ويصادق الحيوانات. كان يتجمّع هناك كل ما كان يُرمى لسببٍ أو دون سببٍ، فأصبح باطن السّريس معرضاً لنفاياتٍ وأغراضٍ منسية يُمكن استعمالها في ألعابنا المُبتكرة. هناك خبأت أسلحتي الخشبيّة في انتظار حرب قادمة.

ما يميّز حاكورتنا أنها كبيرة نسبياً، فهي أرض مشتركة تعود لوالدي وأعمامي الاثنيين. تعيش معنا كل أيام السنة، وفيها من كل موسم ثمر. لا أعرف إن كنت سأحيط بذكر كل ثمارها، لكن كان هناك وما زال التين، والتفاح، والتوت، والليمون، والخوخ، والعنب وورق الدوالي، والبوملي، والإيكيدنيا، والبسفلورا، والجرنك، والمنادلينا، والبرتقال، والبروميا، واللوز، والخروب، والزعر، والخضروات والبقوليات كالحمص والبازيلاء، وأشتال الزيتون، وغيرها. وفيها كنّا نصنع الخبز والمناقيش لكل الأسبوع كل صباح يوم الأحد في فرنٍ على حطب، قبل أن تغزو أفران الغاز قرانا وتقضي على الخبز البيتي. لكن ما زال في الحاكورة قن دجاج بلدي صامد حتى اليوم في وجه البيض المُصنّع في الكيبوتسات الإسرائيليّة.

حين أعود في زيارتي للعائلة، دائماً ما أجلس على كرسي في الخارج، وأنظر من أعلى إلى الحاكورة. فأنا وإن كنت تركت ملعب الطفولة هذا، لكنني ما زلت أنتفس من عالمة الخاص، وبخاصة أننا نعيش في زمن آخر أيام الحواكير. وما يُشعرنني بسعادة أكثر هو في أن أرى أبناء أختي -جيل الهواتف الذكية- يعيشون الحاكورة كما عشناها قبل أكثر من عشرين سنة. أشعر بسعادة لأنهم يحظون بهذه التجربة الآن وقبل وفاة الحاكورة المرتقب.

لا أعرف أي مصطلح يُمكن لنا أن نُطلق على حاكورتنا وعدد آخر قليل من الحواكير المتبقية في قرينتنا وقرى أخرى في الجليل؛ فهل نقول مثلاً «حاكورة ناجية من التّمدن» أم نقول «حاكورة ناجية من الباطون»؟ أو «حاكورة ناجية من الحداثة» أم «حاكورة ما بعد الحداثة»؟ لا أعلم. يُعيدني التأمّل في

الحاكورة، وبخاصة في أيام الحجر المنزلي خلال جائحة كورونا إلى التفكير فيها ليس فقط كذكريات، بل كحيزٍ ناجٍ (حتى الآن) من الهيمنة للنظام الرأسمالي والاستعماري ظلّ يُنتج هامشاً يصنع حياةً متدفقةً خارج محاولات السحق التي يحملها الواقع السياسي والاقتصادي.

تأملّي هذا يقودني إلى حقيقةٍ تراجيديّةٍ محتومةٍ مفادها أنه لم يعد هناك إمكانية لاستمرار الحواكير. فحاكورتنا وإن صمدت فترةً أطول أمام التحولات البنيويّة في القرية العربيّة الفلسطينيّة في الداخل بعد العام 1948، من تهجيرٍ ومصادرةٍ أراضٍ ومحاصرةٍ البلديات العربيّة بأخرى يهوديّة وعدم توسيع مسطحات البناء، وتحويل عملية تطوير البلديات العربيّة إلى هوامش للمدن الإسرائيليّة، سيصيبها هي الأخرى ما أصاب أخواتها الحواكير التي صارت أسمنتاً وشققاً سكنيّةً فوق بعضها بعض وحواصل للإيجار.

مع بدء الحديث عن تقسيمها وتخطيط مستقبل آخر لها وما يرافقه من خلافات على أمتارها، سيبدو الحديث النوستالجي واستنكار الحاكورة غير واقعيّ بالمرّة. وعندما تُصبُّ صبّة الباطون الأولى فيها خلال العامين القادمين، سيُشيعُ جثمانها رسمياً في طقسٍ من طقوس جنازات الحواكير، حيث تُشوى فيه اللحوم، ويأتي الناس والأقارب لتقديم المباركة، وتوزّع الحلوى على الجيران، ولن يبقى لي في الحاكورة حينها إلا ما علق منها في الذاكرة.

مذكرات يوم واحد

لما رباح

مرّت 18 دقيقة، قضيتها في حوض الاستحمام، متكورّ جسدي كجنين. أعرّف أنّها 18 دقيقة، بعدد الأغاني التي مرّت دقائقها ولم أسمع. لا أدري كيف انتهى الأمر بجسدي هنا، ككرة باردة على شقوق حوض الاستحمام؛ ويقعه الحمراء بعد اغتسال شعر أُمّي المصبوغ. مرّت ستّة شهورٍ على هروبي من الوقت. لا أحّدق في شيء ما بالتحديد، أحاولُ فقط أن يمرّ الوقت قربَ صدري ولا أشعر. بالمناسبة، هذه مذكراتي عن يومٍ واحد، تكرر عدد مرّاتٍ لا يحصى. تذكرت. قرأت -في مكانٍ ما- أن 186 مريضاً دخلوا إلى مصحّة نفسيّة، جلّ ما يجمعهم هو الوقت الذي قضوه في مطار هيثرو بلندن. تُعرّف هذه المصحّة بمعالجتها المسافرين القادمين من هيثرو القريب، منهم من وُجد يتجوّل بين بوابات المطار هائماً بلا وجهة. المسافرون القادمون من الشرق غرباً هم أكثر عرضةً للاكتئاب، بينما يعاني القادمون من الغرب شرقاً من أعراض الاضطراب ثنائي القطب. تتغيّر ذواتهم لأسابيع، أوحى شهور، وربما إلى الأبد. كلُّ ذلك لأنّ التوقيت -المنطقة الزمنيّة- اختلف، ولم يعد لديهم إدراك للنهار والليل.

قبل الستّة شهور الأخيرة، كنّا محترفي التحايل على الليل والنهار، قبل أن يلاحظ أحدهم أنّنا نهيم على وجوهنا بين البوابات، وصبغت أُمّي -قبل أن يتوقّف الوقت- جذور شعرها كلّما ابيضّت. تحايلنا على الوحدة وال الفراغ وانعدام الجدوى، تحايلاً على صدري الذي يمرّ فوقه الوقت فيخدش جلده. الآن بعد أن توقّف تماماً، لن نستطيع التحايل عليه والهرب منه؛ أقصد الوقت.

وقفت في حوض الاستحمام، لأكتشف أنّ المياه في الحوض قد هربت إلى المصرف واختفت، وحملت ساقّي الثقيلتين على حافته لأخرج منه، فأسندتني ذراعي على المغسلة. مرّاة أُمّي حوافها معدنيّة ويأكلها الصدأ، ولاحظت أنّ شيئاً لم يتغيّر أبداً في منزلها، مهما اهترا. أنا ما زلتُ أجفّف

قدمي بمنشفة طفولتي الخشنة، فالزمان لا يجري هنا، بل يمسي على مهل، متجاهلاً أن قدمي أصبحت سفينة.

وحين أنظر في مرآة أمي، أرى صورتها عالقة مطبوعة هناك، أمامي، في حدود وجهي، وصوتي الرفيع، وعيني الضيقتين، والحبّ الثقيل كالمرساة في قلبي. أبحث عن نفسي هنا، ولا أجدني كلي؛ ولا أحتفي كلي، ما زالت آثار أقدامي على رمال شاطئ بعيد، ودخان سيجارتي في سماء شرفة أحبها، أبعاد. يتكوّر جسدي كجنين لا يكبر في حوضها، لأن لا شيء يتغير في منزل أمي.

صبغت شعري المتساقط، لأنني أيضاً -مثل أمي- شبت. آخر مرة سرحته فيه، وقفت أمشطه أمام المرأة -طويلاً- وأغنية واحدة تبدأ من جديد كلما انتهت. كان في الحقيقة يغنيها مؤد مبتدئ، استجمع شجاعته ليفشل في تقليد كريس كريستوفرسن. يحدث أن اسم الأغنية «نخب الأوقات الجيدة» أو «للسراء» مثلاً، لو كان ذلك أكثر شاعرية. الأغنية ذاتها من جديد، تعيد:

«لا تحزن،

أعلم أن الأمر انتهى،

لكن الحياة تمضي

(...)

تظاهر بأنك تحبني مرة واحدة أخيرة

نخب الأوقات الجيدة

لا تقل كلمة واحدة عن الغد

أو الأبد

سيكون هناك وقت كافٍ للحزن

حين تتركني».

لا أدري كم مرة دارت الأغنية في Loop، في حلقة، في عقدة، في حبل مشنقة. وبخني أحدهم قبل فترة، قبل يومين أو خمسة، حين قلت جزافاً إن الشهرين الماضيين مرّا بسرعة: «بسرعة؟ كانا أبطأ شهرين في السنة»، وكأني قصدت الإهانة. لا أدري لِمَ قلت ذلك أصلاً، فأنا آخر من يتهم الوقت بالجري. قبل أن يتوقف الزمن وتروج نكتة الغيبوبة الجماعية، اعتدت أكل أظافري أمام طاوور في البنك، أو مؤسسة حكومية، أو صالون الأظافر. كنت أعرق ويعتريني القلق، بينما أرى الوقت الثمين أمامي «يضيع» و «يهدر» وأنا أنألم. لا أدري لِمَ قلت ذلك، ولا كيف انتهى جسدي مراراً في حوض الاستحمام، لا أصدق في شيء ما بالتحديد، لكنني أعرف أن هناك وقتاً كافياً للحزن، بعد أن ينتهي هذا كله.

ربما لم أعد أجيد الكتابة

محمود الشاعر

كنت على شاطئ مدينة رفح ألعب الطرنيب عندما جاء صاحب الكافتيريا ليخبرنا أن الشرطة أمرتهم بإغلاق المكان، رمينا أوراقنا، وعدنا إلى البيوت. كان مشهد الناس عند الساعة الحادية عشرة مشهد الحرب، صامتين. عدنا إلى بيوتنا غير قادرين على استيعاب ما الذي حدث، وكيف نجح فيروس كورونا اختراق حصار غزة والتفشي داخلها، وهذا يأتي في جولة تصعيد ومفاوضات تجري بين حركة حماس والاحتلال الإسرائيلي عبر وسطاء، لا أريد الخوض في نظرية المؤامرة، لكن الشك الدائم في محاولات الاحتلال الإسرائيلي كسر وطمس الإرادة الفلسطينية، جعلني أقول لقد نجح الاحتلال الإسرائيلي في إدخال الفيروس إلى قطاع غزة، وأن الإسرائيليين، منذ البداية، يتعمدون تلويث كل ما يدخل للقطاع من معابرها بفيروس كورونا، مثلما تعمد قتل وتهجير ومحاصرة وقصف وتدمير كل شيء وأي شيء يُساعد الفلسطيني على المقاومة والبقاء.

في آذار/مارس الماضي، عاشت غزة مع العالم أحداث الجائحة، وها هي في نهاية آب/أغسطس تعيشه وحدها مرة أخرى، هل نجحت في تجاوز الأمر في المرة الأولى...؟ لا أدري، هل سأنجو هذه المرة...؟ هذا يعتمد على الكثير من الأمور، أولها أنني أشك في أهميتي كإنسان في هذه المنطقة، وعلى مدار سنوات طويلة مُجربة في الحياة الفلسطينية، بدا لي أن أي شيء أؤمن من المواطن. أما ثانياً، فأنا أشك في جدوى مقاومتي لتداعيات كورونا، الوافد الجديد إلى هموم كثيرة، أعاني وأقاتل وأنا أحاول التعايش معها.

في العام 2008، أنهيتُ الثانوية العامة، إن تخيلنا الحدث كله كمشهد، فأنا وكل أبناء جيلنا دخلنا إلى قاعاتٍ مظلمة، داخل مكانٍ فرض عليه الحصار فجأة، وسُنت عليه ثلاث حروب، وقُطعت عنه الكهرباء، وأُغلقت في وجهه المعابر، وكل ما نعيشه داخل هذه القاعات انقسام وفرقة وخصومة استهلكت كل شيء.

هل النجاة مهمة...؟

في العام 2020، ها أنا مُجدداً أعيش مع العالم فصول جائحة كورونا، وبقدر ما أدهشتني مرونة روح الإنسان ورغبتها في الحياة، أدهشتني غزّة بِحصارها، لم يكن الحصار سيئاً، هذا ما قلناه جميعاً عندما كانت أرقام الإصابات وضحايا الجائحة في ازديادٍ مُخيف، لم يكن سيئاً الحصار، قلنا هذا ونحن نرى كيف ينتشرُ الفيروس من النوافذ والمنافذ البشرية.

أغلقتنا المعابر المغلقة، وزاد خوفنا من حقارة العدو، وقرأت أكثر من مرة عن شكوك ومحاولات خفية للاحتلال الإسرائيلي في إدخال الفيروس إلى غزّة المحاصرة، غزّة التي نجحت في عزل نفسها عن الجائحة ستة أشهر يعيش مجتمعها أثر وتداعيات انتشار الفيروس بخصوصيتها، والخصوصية هنا عُذر غير القادر على فعل شيء، لا يُمكن لنظام غزّة المترهل والمُحاصر والمنهك من الحروب حماية أكثر من مليوني إنسان وتوفير احتياجاتهم الصحية والاقتصادية كما فعل العالم، هنا أستطيع استيعاب كل سلوك يحاول أن يتحايل على حظر التجول والإغلاق من أجل توفير أساسيات الحياة الكريمة للإنسان وأسرته في مجتمع يعيش أكثر من نصفه تحت خط الفقر.

على أي هامش؟

عندما أرى نفسي، أراني أعيش على مبدأ استثمار الأزمة، لقد درّبني السياق في غزّة على ذلك، لا خطط دائمة، يُمكن لأي شيء أن يُدمر فجأة ويختفي، مثلما حدث من قبل في الكثير من تفاصيل حياتي يحدث الآن مجدداً، وعندي قناعة أنني قادر على قول إن أسوأ شيء ممكن أن يحدث هو شيء جيد.

هكذا أقف دائماً، مدافعاً عن الخراب بداخلي، أقول للحياة تراكم ما، وهذا الخرابُ شاهدٌ تجريبي.

أكثر ما يؤلمني وأخاف ألمه هو الفقد، الفقد والخسارة، ولدي فوييا من ألم واستنزاف الصفر، الصفر الاقتصادي والصحي والمعيشي، أخاف من أن تستهلكني الحياة، وأخاف من فقدان الخيارات.

التجول تحت حصارين

عندما كبرت وصار بإمكانني الخروج من البيت لقضاء وقت الفراغ مع الأصدقاء في بيوتهم أوفي الكافي شوب، وصار بإمكانني استخراج هوية وجواز سفر، أغلقت المعابر، وكان المطار مُدمراً منذ ثماني سنوات، وشيئاً فشيئاً صارت فكرة السفر والخروج من قطاع غزة فكرة تشبه العثور على ماءٍ في الصحراء القاحلة، يستمر الحصار منذ خمسة عشر عاماً، خلاله سُلِبنا حقنا في الحياة، فقد تكفل الحصار بتقليص ساعات وصول الكهرباء من 24/24 إلى 8 ساعات يومياً في أحسن أحواله، وتقليص فرص الحصول على سياق طبيعي يضمن لك استقراراً على المستوى النفسي والاقتصادي والاجتماعي، وشمل، أيضاً، ثلاث حروب طاحنة وموجات من التصعيد تأتي بين الحين والآخر.

طوال سنوات الحصار نجحت مرتين في السفر، الأولى كانت في العام 2013 برفقة والدتي للعلاج في القاهرة، وكانت القاهرة وقتها مساحة الركض، هُنَاك دربت قديماً على المشي، ودربت عيني على رؤية مشاهد جديدة في رحلات تستمر لأكثر من ساعة في السيارة، وهناك عرفت الصحراء وقطعتها ذهاباً وإياباً، وهناك رأيت كيف لا تكفي أربع وعشرون ساعة للحاق بحياة غير محاصرة. والمرة الثانية كانت زيارة برلين في العام 2019، المحاولة رقم 7 خلال 6 أشهر للخروج من معبر رفح، وكانت برلين حين زرتها هادئة مثل نهر، صاخبة مثل عاصفة، وعدت لأدرب نفسي مجدداً على الركض، والمشى، والرؤية، وعدت لأعرف الحقول والغابات ومعنى الحياة غير المحاصرة، وهناك رأيت سياق الحياة غير المحاصرة كيف يُثمر وينمو ويكبر.

طوال سنوات الحصار، شيئاً فشيئاً أصبح القطاع يُشبه صالون العائلة الكبير، عائلة مكونة من مليوني شخص، فيه لنا بحرنا الصغير ومنتزهات صغيرة وسوق كبير وميناء يُشبه رسمتنا للسماء ونحن أطفال. في هذا الصالون، يعرف السُكَّان بعضهم البعض، وليس صعباً أن يتعرف الناس على بعضهم، في الأساس يعرف أجدادنا وآباءنا بعضهم البعض، ويمكن بكل سهولة إيجاد صلة قرابة بين السكان في أقصى شمال الصالون وأقصى جنوبه، وتجمعنا سوياً حكاياتنا عن الأحداث ذاتها، إن كانت حرباً أو فرحاً، الحكاية هنا يعيشها الجميع، ويعرفها الجميع، ويمكن أن تسمع تفاصيل الحرب والحياة الحارة بدون كهرباء في الصيف، والحصار والبطالة ومسيرات العودة من جميع الأشخاص كأنهم شخص واحد، يعيش الحكاية وحده منذ 72 سنة تحت الاحتلال و15 سنة تحت الحصار، وجائحة كورونا في 2020م.

على هامش البلادة

ها أنا في غزة، مُجدداً، أدعي أنني أعني ما أفعل، وأذهب إلى خرابي وأقول هذه تجربتي، أدعي أنني عدت هنا مدافعاً عن الخراب في داخلي؛ الخراب الشاهد على حصاري وتجربتي وهويتي، الخراب الذي فيه ذاكرتي وحياتي، الخراب الذي فيه العائلة .

من داخل هذا الخراب أحاول أن أعبر عن مشاعري في هذه المادة، وما أود قوله في الحقيقة أنني فقدت شعوري بالألم، وصار وجع التجارب والخذلان والحروب وانقطاع السُّبل وفشل المحاولات عادياً يأتي في السياق متى شاء، وأصبحتُ أكره انكساري، وصرتُ جيداً في تجاوز الأمور، أُلِّبُ الصحف وقنوات الأخبار وحساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي وأرى العالم بمأساته وإنجازاته كأنه مشهد ساخر، ولا يستفزني شيء، لا مشهد الانفجار، ولا حتى مشهد الألعاب النارية احتفالاً بعيداً ما .

أخيراً،

كالموج تأتيني الحياة، تطلُّ مرتفعة ثم إلى لا شيءٍ تصير.
كالموج تأتيني التفاصيل، تُدهشني، تُسعدني، تُحزنني، تُبكييني، تُخيفيني، تطرحني أرضاً ثم إلى لا شيءٍ تصيرُ بعد قليل .
أخذتُ الصبر والأمل، أتتني البصيرة، وسمعتُ صوتاً يُردد «البُكاء لمزيد من البُكاء، الانكسار لمزيد من الانتظار، والركض لمزيد من اللاشيء .
يا حياة علمتني أن أقف وكي لا أسقط، قُلِّبْ لا تركض بل تمشي، قُلِّبْ لا تنكسر بل تمشي، وقُلِّبْ البُكاء حبلُ في القدمين .
كالموج تأتيني الحياة، تطلُّ مرتفعة ثم إلى لا شيءٍ تصير.

من الفقد إلى العزل، وليس العكس!

يحيى عاشور

في يوليو 2019، أي منذ سنة تقريباً، أقحمني الموت -لأول مرة واعياً- في تجربة الفقد. هكذا، فجأةً، ببساطة، بهدوء، وبتخفٍّ تام، أنهى الموت صراع أبي الطويل مع سكاكين السرطان. لحظة الخبر، ليلاً، وصلت طعنة الموت في أعرق رقاقة في وعيي، طبقة لا أعرفها ولا أستطيع الإحساس بها. لقد بدت ردة فعلي المباشرة بعد معرفتي بالخبر منسجمةً مع ما حَصْرْتَنِي له قراءاتي في الأدب والفلسفة وعلم النفس عن الفقد: التقبل. لكن كل هذه الصلابة تبخرت مع شروق الشمس.

لم تصعقني صدمة الفقد عندما تلقيت الخبر، بل كل ما تبع ذلك من غسيل، ووداع، وصلاة، وجنازة، ودفن، وعزاء. تملكني الحقد على الحياة وقتها، والحقد، بالضرورة، على الأحياء، أكثر من حقدِي على الموت. لقد فانتني بديهية أن كل ما قرأته عن الفقد، يستحيل أن يكون قد كُتِبَ لحظة مرور كاتبها بالمراسم التي تلي موت شخص مقرب. سيبقى الموت ومراسمه، ببساطة، سراً غير مدوّن، هكذا للأبد.

لم أكن «أتفاعل» مع عائلة ممتدة ولا متقلصة، ولا أصدقاء مقربين أو مبعدين، إلا نادراً. لقد كان حقدِي حقدًا هادئًا في ظاهره، قادني إلى العزلة بدلاً من أن ينهي العالم. وما إن بدأ هذا الحقد يتلاشى -دون سيطرة، تماماً كما جاء- تكفلت ظروف حياتي بعدها بأن تكون سبباً لاستمرار هذه العزلة. لم يكن تواصلِي الإنساني مع أي شخص تقريباً إلا من وراء جدران السوشيال ميديا أو العمل والنشاط الاجتماعي أو الجامعة.

نزلت تدريجياً من رغبتِي في انتهاء العالم إلى رغبتِي في أن يتوقف العالم قليلاً، نعم، العالم كله وليس عالمي فقط. لقد تمنيت ذلك كل يوم، حيث

كنتُ أصارعُ الفقد والحياة في آنٍ واحد. وفجأة، بدأ فيروس كورونا كوفيد-19 - يهز العالم، ويجبره على التوقف! ما أروعها من هدية!

أُعلنت حالة الطوارئ بسبب وصول فيروس كورونا كوفيد-19 - في مارس هذا العام. لقد كنتُ جاهزاً جداً لأن أبقى في البيت، أو بالأصح، في غرفتي، فهذا ما كنتُ أتمرن عليه، دون علم، في الأشهر السابقة. لقد منحني كورونا فرصة لأتقن «التباعد الاجتماعي» قبل أن تصب غضبها على العالم، وتحقق أمنيته بإيقافه. لم يكن خيراً التقارب الاجتماعي، في السابق، أكثر من شر التباعد الاجتماعي على أي حال بالنسبة لي.

توقفت الجامعة والمؤسسات وأماكن التلاقي، ولكن لم يتوقف الإنترنت! لم أُنسرع في أن أعتب على كورونا تجاهلها انتقال التفاعل الاجتماعي بطريقة شبه كاملة إلى الإنترنت. لقد كان في أسوأ الأحوال متنفساً لإنكار العزلة، وكان بإمكانني في أي وقت أردت، إطفأؤه بلمسة واحدة! ولكن الإنترنت تحوّل رويداً رويداً إلى مرآة تُعري فيه كورونا تبعاتها.

لقد كانت كورونا في الظاهر، ولا زالت، تحجر وتخفق الناس وتُزهق الأرواح حول العالم. لكن أصبح من السخيف أن تكون كورونا مجرد صدفة وليست مجرد نتاج أنظمة الرأسمالية والديمقراطية والذكورية والعنصرية والعولمة، وبخاصة أن أسيا هذه الأنظمة من الدول هم من تأثروا أولاً وكثيراً، وأن التكنولوجيا، التي تزين هذه الدول، سرّعت من سيادة الفيروس بدلاً من أن تقضي عليه سريعاً.

جعلت كورونا العالم كله يقف على الحافة نفسها، معطيةً إياه فرصة لمراجعة أنظمتها، ولكن سيصعب تبين إن كان العالم قد تعلم درسه إلا بعد انقضاء هذه المرحلة. ما يتضح الآن أن العالم بأكمله مكان خطر. بالأحرى، مزيف.

إذا كان هذا وضع العالم، فماذا عن وضع فلسطين، بلادي التي لا زالت تحت آخر احتلال في العالم. لم تزحزح كورونا سياسات الاحتلال في التعامل معنا، بل على العكس، لقد استغل هذا الاحتلال فرصة انشغال العالم، وتمادي، مع أعوانه، في تحقيق طموحاته في تثبيت وجوده كأمر واقع أكثر وأكثر! وكما هو الحال دائماً، فإن هذا الاحتلال تسبب في معاناة الفلسطينيين من آثار كورونا في جوانب مختلفة حسب أماكن وجودهم، في غزة، أو الضفة بما فيها القدس، أو أراضي 48، أو الشتات.

في غزة، حيث أعيش، لم يتزحزح الحصار أو الانقسام من مكانهما خطوة واحدة في ظل كورونا، هذا إضافة إلى الزنانة والصواريخ التي تشتاق لزيارتنا

ما بين يوم وآخر. لا أعرف لماذا كنت آمل، كما آمل دائماً، أن تحسّن كورونا شيئاً من هذه الظروف في غزة، لكن آمل خاب، كما يخيب دائماً. وحين نجحت السلطات في غزة في حجر كل من عادوا، خلال الفتح الجزئي للمعابر، مدة 21 يوماً تكفي للتأكد من عدم حمل أحد للفايروس قبل إدخاله إلى المجتمع، وثقت فعلاً أننا في غزة لن نعاني مباشرةً من ويلات الفايروس المباشرة. لأول مرة، ظن الكثير هنا أن الحصار أخيراً يمتُّ علينا بفائدة واحدة.

وبالفعل، عادت الحياة تدريجياً داخل غزة، عادت المطاعم والمدارس والجامعات والمؤسسات إلى العمل على طبيعتها سابقاً بشكل شبه كامل، وبالطبع عاد التقارب الاجتماعي، الذي لم يلتزم به الكثير أصلاً. لكن كان هناك شعور دائم أن خطأ واحداً يحدث في سياسة الحجر قرب الحدود، سيكون أشبه بانفجار قنبلة موقوتة داخل غزة. حتى هذا التخوف بدأ يقل مع بدء العالم بتخفيف إجراءات الوقاية من الفايروس. وهنا طعنّت كورونا ظهورنا

حدث الخطأ، صارت كورونا بيننا أخيراً في نهاية أغسطس. لم تكن تعطينا كورونا من خدمتها رفقاً بحالنا كما كنا نظن، بل إن كل ما في الأمر أننا، في الضراء كما في السراء، في آخر أولويات العالم، بل الحياة أيضاً!

لا أعرف كيف سيكون شكل الأيام القادمة. لا أريد أن أتوقع أو أأمل أي شيء... لكنني أعرف أنني سأتعلق بأمل ما، وسأتعلق بأمل آخر فورما يخيب الأمل الذي قبله، هكذا نجوت من صعوبات الحياة قبل كورونا، وهكذا سأنجو من كورونا. وإن، في أسوأ الأحوال لم أنج، فعلى الأقل، لن أكون حياً لأضحك على نفسي. الأمل بيتي، ويمكن لليأس أن ينال مني كما يشاء حين أموت.

لقد مرّ عامٌ على تجربة الفقد، وكنْتُ قد نجحتُ أخيراً في تكسير جدران العزلة، كنت بدأت أستعيد شعوري بالأشياء. بالفعل. لا أريد أن أقول إنني لستُ مستعداً هذه المرة لتجربة عزلة أشد، فلقد تدرّبت على ذلك جيداً. ما أريد قوله أن في داخلي مخاوف. خوفاً من أن تعود أشباح الفقد بالضراوة ذاتها تحرس عزلتي، خوفاً ألا أستطيع مساعدة الآخرين في مشاعرهم ومشاكلهم، خوفاً ألا ينجو من كورونا من ساعدني يوماً في النجاة من حياتي، خوفاً ألا أستطيع تقديم شيء جديد لنفسي وللعالم، خوفاً من أن أفشل في تحمل مسؤوليات استقلاليّتي عن العيش الذي فقدتُ بانيه.

توهمت، أول انتشار الفايروس بالعالم، أنني سأكون أول من يصاب بهذا الفايروس في غزة، قلت لنفسي إنني سأكون أول من يبلي غزة، ربما انتقاماً أو

ضعف ثقة بالذات، لكنني لم أكن أول المصابين فيها، والآن لا أسعى إلى أن أكون أحدهم أصلاً.

ظننت أنني لن أتمكن من التخرج والحصول على درجة البكالوريوس في علمي الاجتماع والنفوس في ظل التعليم الإلكتروني، ولكنني تخرجت واستلمت شهادتي وسامحت جامعتي على حفل التخرج الذي لم أكن أرغب فيه أصلاً. ظننت أنني لن أنجز وراء دعوات الكثيرين بتعلم مهارة جديدة عبر الإنترنت، لكنني وجدتني أدخل مجالاً جديداً عبر الإنترنت وأتميز فيه. ظننت أنني لن أتمكن من كتابة حرف عن كورونا، وها أنا أكتب كل شيء

أحتاج الآن إلى ترتيب ما بعثرته الأيام داخلي وداخل أجهزتي الإلكترونية، وإلى الابتعاد أكثر ما يمكن عن تويتر، والاقتراب أكثر من الكتب والموسيقى والفن والفيديوهات والكلمات. وإن شعرت بالملل بعد كل هذا، سأذكر الشمس والليل، وياسمينتي على النافذة. وربما سأرقص وأغني مع عمرو دياب في غرفتي بينما أفكر بما يمكن إنجازه في المستقبل خلال جائحة كورونا وبعدها!

إطالة على الحياة

دنيا الطيب

أزحنته بتذمُّرٍ عن كرسيِّ مكتبي، انتزعته من خيوط ملابسي، سحقته مع السيجارة في المنفضة فجاء ساخراً بحرقه إلى أحلامي. أيها الحزن، لن تربني في روح الهزيمة، بل سأموت بشرفٍ على أطلالك.

أعترف بأنني فتاةٌ لا تحبُّ عيش الحياة من وراء الستائر، ولعلَّ رغبتني الدائمة في مشاكسة مشاعري والتمرد عليها تسببت لي بالأم روحية شديدة. ما تعلمته في الآونة الأخيرة هو إقصاء الجسد أو الآلة التي اعتدت عيش يومي من خلالها. الآلة التي تقود السيارة، تذهب إلى عملي، تنتقي لي قمصاني، تنظر في عيون الذين أحبهم بدلاً مني، وتسخر من مشاعري اختزالاً للوقت وإنكاراً للضياع. صرت شديدة الحرص على روحي: ألا أنساها في مقابلة عمل، في غرفة انتظار، أو ببساطة أكثر، على سريري بينما تذهب الآلة المشؤومة لتعدَّ كوباً من القهوة.

إنَّ لي روحاً صعبةً وانتقائيةً منذ استلامها مهمة استيطان هذا الجسد، فقد قرَّرت أن تحظى بتفكير سيِّدة عجوز لا تحفل إلا بالصمت والإدمان على القهوة والتدخين والكتب والكتابة. أعرف أنَّ روحاً تقليديةً مثل روحي ستكون نكتة الموسم لرواد عصر الحداثة من أبناء جيلي. لهذا لم يكن سخطي على وباء كورونا عميقاً. فأنا لا أنتمي إلى أماكن أو أشخاص، لكنني اعتدت الجلوس تحت الشمس في أوقات فراغي، تُمنح الظلال قيمة تحت الشمس، تطول أو تقصر على نحو مضحك، تُعيد هيكلة الأشياء والأشخاص. هذا يذكرني بزميلة ألفت التدريب على إلقاء النصوص الأدبية فوق مقعدٍ خشبيٍّ تظله شجرةٌ تخرق وريقاتها الشمس. حين جلست بجانبها صرخت متذمِّرة وهي تلوح بالورقة بين يديها: «في قلب المأساة نمة نور...» تعقد حاجبيها متوسِّلة: لا يمكنني اختراع نبذة صوتٍ حزينة. كانت سئلقي رسالة فان غوخ لأخيه ثيو، لا أعرف إن كانت قد نجحت في ذلك أم لا.

خلال الجائحة رَوّضتني الكتب، أنا على صلة عاطفية بكتاب «اللاطمأنينة» لفرناندو بيسوا. تأسيرني الشخصيات التأملية وتجذبني المعاناة. تعلّمت من كتاب «موت الواقع - نقد الفكر الجذري» لجان بودريار، ألا أخاف من النسيان؛ لأنه نقيض الموت. موت الواقع يعني قتل التفاصيل بالدرجة الأولى، ولعلّ موت كل شيءٍ آخر يندرج تحت هذا التعريف المبسّط؛ فالإنسان حين يغيب يصير مجموعة من الذكريات الطويلة منتهية الصلاحية التي تختلط فيما بينها، فتفقد معناها. الاختزال هو الموت.

مريضة السرطان التي أعرفها لم تكن تخاف الموت. لا تربطنا صداقةٌ وثيقةٌ لكنّها استعارت مني كتباً حين كنا على اتصال، تحبّ القراءة وتقسم الإنسان إلى قسمين: العشوائيّ والمنظّم. هي تميل إلى أن تكون بينهما. السرطان حوّلها إلى فتاةٍ عشوائيةٍ؛ فالألم يحرمها من رفاهية كنس الغرفة أو نهر عنكبوتٍ عن بناء شبكته في زاوية السرير. حين زرّتها قالت: أنا اليوم فتاةٌ صلعاء. لا حاجة لي إلى صبغ شعري، لا بأس، سأصبغ شعري المستعار بلون بنديقي. ولكنّه مقيت، طويلٌ ومضحك.

ما لا أنساه في فترة الحجر الصحيّ؟ الموظّفة التي اعترفت لي في مقابلةٍ لكتابة قصّة صحافية عن أزمة المقاصة: «قبل أن تذهب ابنتي إلى الجامعة أعطيتها كل ما لديّ من مال، عانقتها وقلت: سامحيني...» لا أنسى الطريقة التي لفظت بها كلمة سامحيني تلك. لا أنسى كيف بكت ودثّرت وجهها بدخان سيجارتها التي سبقتها إلى الانطفاء.

أميل إلى سماع الناس أكثر من التحدّث إليهم، أنا وإن كنتُ قادرةً على رصف الكلمات، إلا أنني نادراً ما أعرّ على جملةٍ مرتّبةٍ تصلح كإجابةٍ أو سؤال. لماذا؟ دون أسبابٍ وجيهة، ثمّة شخصياتٌ تنمو بطريقةٍ مغايرةٍ عمّن سواها، لعلّه الاختلاف في مستويات الوعي والتجارب والصفعات.

الوعي الذي يستشعره المرء مع بداية سنوات عمره الأولى لا يزول. ملمسُ وجه أُمي، المعنى الأوّل الذي احتلّته كلمة «قمر» في ذاكرتي، اسمي، الخذلان الأوّل والجرح الذي بنيتُ عليه بعد نضجي؛ لعجزي عن فهم مغزاه في طفولتي. أخشى ما لا يمكنني دفنه معي. وكثيرةٌ هي الأشياء التي ستعيش بعدي، قد تكون عالماً بأكمله. عالمي مأهولٌ بإفراط، بأشياء وأشخاص وكتب.

يحرّز في نفسي أن تكون بيت لحم بعيدةً عن عالمي الضيق الملموس، رغم احتلالها مساحةً محترمةً من الذاكرة، ورغم نبشي المستمرّ في جيوب الأوصحاب والمعارف بحثاً عن أخبارها. فمسقط الرأس يظلّ مكاناً عزيزاً

يجتذبك إليه بخيوط الشوق والهوية. هل جرّبت يوماً أن تُمنح الأمان؟ بيت لحم تشكّل هالةً أمانِي، وحين سرت في طرقاتها قبل زمنٍ تماهيتُ مع حجارَتها، وجدرانها، وصور الحزن والمقاومة التي رُسمت عليها. لو تُركت لمدّة ساعةٍ واحدةٍ في بيت لحم، كنتُ سأقضيها داخل مكتبة تنوين، المكان الذي فاتني ترك بصمتي فيه وسرقة بصمات كتابٍ أحبّهم منه.

ما يستوقفني أنّه ثَمّة أشياءٌ في هذه الحياة ستظلّ خارج نطاق إرادتنا، وإن زال الوباء لن تزول. المشاعر. مسحة اللامبالاة التي ستؤطر على الدوام صورة فتاةٍ لا تضحك، تنظر بعينين حادّتين إلى نقطةٍ ثابتة، وأقصى ما يمكنها منحه لروحٍ تحبّها هو ابتسامة وداعٍ قصيرةٍ ومتحفّظة.

لا يمكن للمرء أن يعرف نفسه، ولا أقول إنني أعرف نفسي، ما أنا واثقةٌ منه هو أنّ هويتي ستظلّ تجدد باستمرار؛ فوحدها الهوية الثابتة هوية ميّنة. وهذه الفتاة المُختنقة بشرودها على الحائط، لن تكون يوماً أكثر من التفاتةٍ طفوليةٍ إلى شجرة ساق بامبو وضعتها أُمي على الطاولة المقابلة؛ كنوعٍ من الزينة.

صدر هذا العدد بدعم من البرنامج العام - مؤسسة عبد المحسن القطان
ضمن مشروع "كورونا فون"

